مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

تاريخ الإمارة العيونية في شرق الجزيرة العربية

عبدالرحمن بن عثمان آل ملا

تاريخ الإمارة العيونية
في شرق الجزيرة العربية

تأليف
عبدالرحمن بن عثمان بن محمد آل ملا

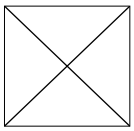

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحثان
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

عبدالعزيز جمعة
و
ماجد الحكواتي

الصف والإخراج والتنفيذ:

محمد العلي

أحمد متولي **أحمد جاسم**

حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة

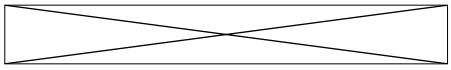

تلفون: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)
E-mail < babtainprize@hotmail.com >

2 0 0 2

تصـديـر..

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله العربي الأمين، خاتم النبيين، ومؤسس الدولة الإسلامية القائمة على أفضل نهج ودين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد.

فلم يكن من ضمن منهاج مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري خلال دوراتها السابقة، أن تصدر كتاباً عن تاريخ الدولة التي ينتمي إليها شاعر الدورة، وكان أقصى ما يمكن في هذا الاتجاه إصدار كتاب عن «عصر الشاعر» والعناية بالجانب الثقافي منه، كما حصل مع شاعري الدورة السابعة الأميرين: أبي فراس الحمداني وعبدالقادر الجزائري، حين أصدرت المؤسسة كتابين هما: عصر أبي فراس الحمداني وعصر الأمير عبدالقادر الجزائري.

أما في هذه الدورة: دورة علي بن المقرب العيوني، فإن اللجنة العليا المنظمة للدورة رأت أن من الأهمية بمكان إصدار كتاب عن تاريخ الدولة أو الإمارة العيونية من عدة منطلقات أساسية منها:

١ - ندرة ما كتب عن الدولة العيونية حتى تكاد تكون نسياً منسياً بالرغم من أنها حكمت منطقة شاسعة من شبه الجزيرة العربية، ودام حكمها (١٦٨) عاماً (من ٤٦٩ - ٦٣٦هـ).

٢ - قيام هذه الدولة وزوالها في منطقة بارزة من وطننا العربي، مع بقاء تاريخها شبه مجهول، حيث لم يلتفت المؤرخون إلا إلى العواصم والحواضر المهمة في العالم الإسلامي آنذاك، تاركين تاريخ مناطق الأطراف - ومنه تاريخ هذه المنطقة - يرزح تحت ظلام الإهمال.

٣ - ولكن الله عز وجل قيّض شاعراً هو علي بن المقرب العيوني، سجل كثيراً من الأحداث والوقائع التاريخية للمنطقة في قصائده، ووثّق خلالها ما تعرض له من الظلم والعسف والجور والسجن ومصادرة الأملاك على يد العديد من الأمراء العيونيين، حيث تعد هذه القصائد مصدراً مهماً وفريداً لتاريخ الدولة العيونية، باعتبار ابن المقرب أحد أفراد الأسرة العيونية الحاكمة.

وكان مولد ابن المقرب عام ٥٧٢هـ ووفاته عام ٦٢٩هـ. مما أتاح له مشاهدة أمجاد الدولة العيونية في ذورتها كما شاهد بدء انحدارها إلى أن تلاشت تماماً بعد وفاته بسبع سنوات فقط.

وقد خلد ابن المقرب في شعره تفاصيل هذه المحن وأبعادها، سواء أكانت محناً شخصية أم عامة، ورصد من خلال قصائده العديدة تاريخ أسرته وبلاده في الذورة والحضيض على حد سواء، وامتاز شعره بالمطولات والحماسة بشكل عام، وبخاصة مطولته التي مطلعها:

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارْمِ الفجاج بها فالخطب قد فقما

وتقع هذه المطولة في (١٥٠) بيتاً أرّخ فيها الشاعر لوقائع أسرته وأمرائها وكبرائها وأجوادها وفرسانها وجهادها ضد القرامطة وعرض لخلافاتها وتدهورها، مما يعيد إلى الأذهان مطولة «العامرية» لأبي فراس الحمداني التي تعد مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الأسرة الحمدانية.

ولعل في هاتين القصيدتين ما يبين بأجلى الصور مصداقية مقولة «الشعر ديوان العرب»، فلقد حفظ الشعر كثيراً من أيام العرب ووقائعهم في مختلف العصور، ولولاه لاندثرت حقائق تاريخية كثيرة.

ويسعدني أن أقدم بالغ الشكر والتقدير للشيخ عبدالرحمن بن عثمان الملا الذي نهض بإعداد هذا الكتاب، برغم كل الصعوبات التي أشار إليها في المقدمة، وللباحثين في الأمانة العامة الأخوين ماجد الحكواتي وعبدالعزيز جمعة على ما بذلاه من جهد في مراجعة هذا الكتاب.

ولله المنة والحمد وهو ولي التوفيق..

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت ١١ ربيع الآخر ١٤٢٣ هـ
٢٢ يونيو ٢٠٠٢م

المقدمة

يدرك الباحثون والكتاب في تاريخ الجزيرة العربية جيداً مدى المصاعب والعقبات التي تعترض سبيلهم في لمّ شتات الإشارات المتفرقة في تضاعيف الكتب وما توحي به الآثار من تاريخ الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية «البحرين قديماً»، فعلى الرغم من تسليم المؤرخين بأهمية الدور الذي لعبه أهل هذه البلاد في صياغة الحضارة الإنسانية منذ سطعت أشعتها على ربوع المعمورة، إلا أن رسم ملامح صورة ذلك الدور بدقة ووضوح خارجة عن الطاقة في الوقت الحاضر على الأقل، ذلك لأن تدوين التاريخ ورصد حقائقه وتوثيقها يعتمد على مصدرين رئيسيين هامين هما : الآثار والمعالم المادية، وأدبيات التراث المدون، وليس أمام الباحث في تاريخ هذه البلاد منهما سوى ومضات وشذرات تجعل مهمة جمعها وتنسيقها كمهمة الغوص على اللؤلؤ واستخراجه من أعماق الخليج، كما أن السرور برؤيتها في سفر واحد كرؤية تلك اللآلئ في عقد جميل على صدر حسناء، ولكن لماذا هذه الندرة في المعلومات والمصادر مع ما نزعمه من وجود دور رائد لأهل هذه البلاد في صنع التاريخ البشري وصياغة الحضارة الإنسانية ؟ للإجابة عن هذا السؤال سنلقي شيئاً من الضوء على أهم الأسباب التي أفضت إلى تواري المعالم الأثرية البارزة وغياب الكتابات والمؤلفات في تاريخ هذه البلاد.

فأما الآثار والمعالم فقد تضافرت على زوالها عدة عوامل من أهمها:

(١) زحف الرمال المتحركة بفعل الرياح العاتية التي كثيراً ما تسببت في دفن عدد من القرى والمدن حيث يضطر أهلها إلى التحول عنها بما خف حمله وغلا ثمنه من أموالهم.

(٢) ربما كانت المواد التي دون عليها سكان هذه البلاد معارفهم ونتاج حضارتهم سريعة التلف، وإن حرارة الجو وتشبّع بعض الأراضي بالمياه قد أتلفت تلك المواد.

(٣) أفضى تكرر البناء والعمران في الموضع الواحد إلى نهب محتوياته من الآثار، وقد أثبت المسح الأثري أن عدداً كبيراً من المقابر والرجم قد تعرضت للنهب والسرقة.

(٤) أدّى عمل هواة جمع الآثار إلى إتلاف وضياع الكثير من المواد الأثرية القديمة، لأن ممارستهم لتلك الهواية كانت تتم بصورة عشوائية وغير منظمة تنظيماً علمياً.

(٥) إن تعرض هذه البلاد في مختلف الأزمنة السابقة لهجمات العديد من الحكومات المجاورة قد أدى إلى إتلاف وتدمير الكثير من المعالم الأثرية، ولا يزال التنقيب الجاد عن الآثار يمثل أحد خيوط الأمل المرجو لإزاحة الستار عن كثير من الصفحات المطوية من تاريخ هذه البلاد.

وفي ما يتصل بالمؤلفات والكتابات ذات الصلة بالبحث في تاريخها، فيمكن القول إن أهل هذه البلاد لم يدونوا تاريخهم أصلاً، أو إنهم دونوه فتعرض للتلف والضياع، سوى تلك النتف المندسة في ثنايا كتب التراث، والسبب في الحالتين واحد، هو في ما أرى التمايز والتضاد في أنماط الحكم التي خضعت لها بلاد البحرين عبر مسيرتها التاريخية. فمن خصائص حياتها السياسية أنها تعرضت لانقلابات ذات طبيعة عقدية، فكان الانقلاب إذا حدث لا يعني استبدال حاكم بحاكم أو أسرة مالكة بأخرى، بل يأتي وهو يحمل معه عقائد وقيماً يعمل على فرضها على الناس وإشاعتها فيهم، واستئصال ومحو كل ما للعهد السابق من آثار وتراث، وهكذا دواليك.

أما لماذا لا نجد في أسفار التاريخ العام معلومات كافية عن تاريخ البلاد فإن حظها من ذلك لا يقل عن حظوظ نظيراتها من الأقطار العربية باستثناء الحواضر الكبرى للخلافة الإسلامية كدمشق وبغداد والقاهرة.

ومن المعلوم أن أساطين المؤرخين قد قصروا اهتمامهم على هذه العواصم أو قل على قصور الخلفاء فيها، فسجلوا كل ما يعنيها من شؤون أو يجري عليها من أحداث، أما شؤون وأحداث الأقطار الأخرى فقد ظلت حبيسة عزلة تلك الأقطار، ولم يكن لها

نصيب في أسفارهم إلا ما جاء من أخبارها على لسان بعض القادمين منها إلى تلك الحواضر من التجار وعابري السبيل، وأخبار من هذا النوع لا بد وأن يشوبها كثير من القصور والاضطراب والتشويه.

وفي تصوري أن قلة عناية المؤرخين بتسجيل تاريخ تلك الأقطار والتقصير في عرض أحوالها وتدوين أحداثها، يعد أمراً سلبياً في تاريخ المسلمين، وهو يعكس بوضوح إهمال الخلفاء لتلك الأقطار وعدم اكتراثهم بمعرفة أحوالها وإصلاح شؤونها، وليس أدل على ذلك من حال هذه البلاد وما جرى فيها من أحداث خطيرة أفضت في النهاية إلى استقلالها عن الخلافة العباسية رغم قربها من حاضرتهم، دون أن تشغل أخبار تلك الأحداث من صفحات أسفار التاريخ العام ما يتناسب مع جسامتها، وفي ذلك مؤشر واضح الدلالة على مدى العزلة التي كان يحياها المؤرخون في صوامعهم وأبراجهم العاجية في العواصم الكبرى من ناحية، والعزلة التي كانت تعيشها الشعوب خارج تلك العواصم من ناحية أخرى.

ولكن يمكن القول إن أسوار تلك العزلة آخذة في التداعي وربما الزوال، بفضل النهضة العلمية التي تتفيأ البلاد ظلالها وانتشار الوعي بأهمية نفض الغبار عن تاريخها، فقد استطاعت بعض الأقلام أن تحدث فيها ثقوباً نفذت من خلالها إلى معرفة الكثير من أحوال هذه الشعوب المعزولة، وعرضها في أسفار أسهمت في ردم هوة طالما شكت من وجودها المكتبة التاريخية العربية، ففي ما يخص الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، فقد صدر في تاريخه عدد من الكتب والدراسات المهمة تناول بعضها عرض تاريخه بصورة شاملة، وانصب بعضها على دراسة مرحلة زمنية محددة من ذلك التاريخ، أو جانب من جوانبه أو منطقة بذاتها من مناطق البلاد.

وقد بدأت حركة التأليف في تاريخ هذا الجزء من الجزيرة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، على يد عدد من الرواد مهدت محاولتهم الطريق لظهور مؤلفات مهمة ودراسات أكاديمية، تقدم بها بعض الدارسين لنيل إجازة الماجستير والدكتوراه من مختلف الجامعات.

هذا إلى جانب عدد من البحوث التي صدرت عن المؤتمرات التاريخية وما تم نشره في الدوريات والمجلات المحكمة، أما ما نحن بصدده من البحث في تاريخ الدولة العيونية في بلاد البحرين، فإن من يُمن طالع هذه الدولة أن قيض الله لها من أبنائها من يخلد ذكرها ويبرز دورها في تاريخ هذه البلاد، ذلك هو الأمير الشاعر جمال الدين علي ابن المقرب العيوني (٥٧٢ – ٦٣١هـ/ ١١٨١ – ١٢٣٧م)، الذي شاء الله أن يبتليه بمحنة كان فيها الخير له ولقومه وللتاريخ، فقد سخط عليه الأمراء من أبناء عمه فاضطهدوه ونكلوا به وبأهله، فصاغ معاناته وآلامه شعراً حفل بذكر الكثير من أمجاد الدولة العيونية وأخبارها وبيان أحوالها في مراحل حياتها المختلفة، وقد أجبرته تلك المحنة على الخروج من بلده ميمماً شطر العراق، حيث الأضواء وذيوع الصيت، فكان ذلك من أسباب معرفة شعره وبقائه على قيد الحياة، والذي لولاه لأصبح تاريخ الدولة العيونية رغم عمرها المديد نسياً منسياً شأنها في ذلك شأن من تقدمها ولحق بها من الدول التي حكمت هذه المنطقة.

ويكفي شاهداً على ما نزعم أننا لا نجد إشارة واحدة عنها حتى في كتب المؤرخين الذين عاصروا قيامها أو جاءوا بعدها، وأن مؤرخاً كـ«ابن خلدون» لم يعلم أي شيء عن هذه الدولة، يؤكد ذلك زعمه أن حكم الأحساء آل من بني ثعلب إلى عصفور وبنيه من بني عامر، وبين هؤلاء وأولئك فترة زمنية تقترب من مائة وسبعين عاماً هي عمر الدولة العيونية، فهو يقول : «فقد نجح الأصغر (الأصفر) زعيم بني ثعلب في جعل الحكم وراثياً في بنيه من بعده في بلاد البحرين، فظلوا يتولون الأمور فيها حتى ضعف أمرهم وانقرضوا، وخلفهم في حكم هذه البلاد «بنو عقيل» الذين عادوا إلى ديارهم بعد أن تغلب عليهم السلاجقة في الجزيرة العربية»، وقد ذكر «أبو سعيد» صاحب كتاب «المغرب في حلى المغرب» أنه سأل أهل البحرين الذين قابلهم في المدينة المنورة سنة ٦٥١هـ عن بلادهم فقالوا : «الملك فيها لبني عامر بن عوف بن عامر بن عقيل»[1] أما بنو ثعلب فأصبحوا في جملة رعاياهم.

(١) ابن خلدون : التاريخ، ج ٤، ص٩٢.

من هنا تتضح أهمية ديوان هذا الشاعر وشروحه في حفظ هذه الصفحات من تاريخ البلاد، باعتباره المصدر الوحيد الذي يمكن التعويل عليه في كتابة تاريخ الدولة العيونية في بلاد البحرين.

وقد حظي هذا الديوان بشيء من الشهرة والانتشار، يؤكد ذلك وجود مخطوطاته في مكتبات عدد كبير من العواصم العربية والعالمية، وقد بلغ عدد ما تم حصره منها حتى الآن أربعاً وخمسين مخطوطة، كما طُبع أربع مرات كانت الأولى في مكة المكرمة سنة ١٣٠٧هـ وقد قام بطبعها على نفقته الشيخ «عبدالله بن سعيد باخطبة» من أهل مكة، وكانت الطبعة الثانية بمدينة «بومباي» بالهند وقد تم الطبع بوساطة الحجر وكانت على نفقة نخبة من محبي الأدب من أهل الأحساء تصدرهم الشيخ «عبدالعزيز بن أحمد العويصي الخالدي»، وكان الذي قام بجمع قصائدها الشيخ «حمد العيوني»، أما الذي أشرف على طبعها وراجعها فهو الشيخ «محمد بن إبراهيم الجغيمان»، وطبع مرة ثالثة على حساب الشيخ «علي بن عبدالله آل ثاني» حاكم قطر الأسبق، ونهضت مكتبة التعاون الثقافي بالأحساء لصاحبها الشيخ «عبدالله بن عبدالرحمن الملا» بطباعة الديوان ونشره محققاً، وكان الذي حققه بتكليف منها الأستاذ عبدالفتاح الحلو، كما أجريت حوله بعض الدراسات منها :

١- دراسة رائدة بعنوان «ابن المقرب حياته وشعره»، قام بها الأستاذ عمران العمران.

٢- دراسة بعنوان «علي بن المقرب حياته وشعره» قام بها الدكتور علي عبدالعزيز الخضيري لنيل شهادة الدكتوراه، استهلها بمقدمة تاريخية عن الدولة العيونية تقدم بها في سنة ١٤٠١هـ.

٣- دراسة بعنوان «إقليم البحرين في العصر العباسي»، رسالة ماجستير من إعداد الدكتور عبدالرحمن المديرس تتضمن تاريخ الدولة العيونية تقدم بها في سنة ١٤٠٤هـ.

٤- دراسة تاريخية جيدة بعنوان «ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في البحرين» أعدها الدكتور فضل بن عمار العماري، إلا أن المؤلف حاول بتكلف شديد إثبات انتماء

عقيدة الشاعر للمذهب الزيدي وهذا أمر بالغ الغرابة جداً حيث لا يذكر للزيدية في هذه البلاد وجود، ولأن المقام لا يتسع هنا لمناقشة هذا الزعم وتفنيده،ه فإنني أكتفي بالإشارة إلى القول إن رائحة التشيع التي اشتمها المؤلف المذكور من قصيدتين في شعر ابن المقرب ربما تسللتا إلى بعض نسخ الديوان من شعر شاعر آخر من أهل الأحساء يدعى «علي بن المقرب» جاء بعد الشاعر المذكور بنحو خمسة قرون(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض مخطوطات الديوان ومطبوعاته تشتمل على شروح زاخرة بالمعلومات عن الدولة العيونية وتمثل أهم المصادر لمادة هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارئ العزيز. وينبغي ألا يغيب عن البال أن شُرّاح الديوان حين أوردوا ما أوردوا من أخبار الدولة العيونية لم يضعوا في اعتبارهم أنهم يكتبون تاريخ الدولة فيراعون ما ينبغي على المؤرخ مراعاته من تسلسل الحوادث ودقة تواريخها، وصحة أسماء من ينسب إليهم حدوثها، لذلك لم يسلم بعض تلك الروايات من بعض الشوائب كوجود تاريخين مختلفين لحادثة واحدة، وإسناد واقعة معينة في رواية لشخص وإسنادها في رواية أخرى لشخص آخر، وبخاصة عندما يكون الشخصان مشتركين في الاسم واسم الأب وربما في الكنى والألقاب، وهذه إشكالية تُوقع من يتصدى لكتابة التاريخ العيوني في شيء من الحيرة إزاء ترتيب الأحداث وتنسيقها وتحديد أبطالها، ويظل الحس التاريخي والقرائن السبيل الوحيد لدى الباحث في الأخذ برواية دون أخرى حين يعرض له شيء من الإشكال واللبس، وهذا ما اقتضاه منهج البحث في هذا الكتاب الذي جاء استجابة لدعوة كريمة تلقيتها من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ليكون ضمن أعمال دورتها الثامنة في المهرجان الخاص بتكريم علي بن المقرب .

(٢) عاش في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجريين وكانت وفاته في منطقة الحويزة حيث كان يشغل مناصب هامة لدى «شبّر المشعشعي» من أسرة المشعشعيين الذين حكموا الحويزة والجزائر والمحمّرة ونواحي من البصرة، وقد ورد ذكر ابن المقرب هذا في عدة مصادر منها كتاب «معارف الرجال» لابن حرز الدين النجفي وكان قد أخذ المعلومات الخاصة به عن رجل من أهل الأحساء يقيم في منطقة الدورق «الفلاحية»، ذكر أن علي بن المقرب المتأخر، هو جده من قبل الأم، كما ورد لابن المقرب هذا ذكر في كتاب تاريخ المشعشعيين «لجاسم المشعشعي» فقد ترجم له وأورد شيئاً من شعره اعتماداً على إفادة شفوية من الحاج «جواد الرمضان» عضو مجلس إدارة نادي المنطقة الشرقية الأدبي.

كما اقتضى منهج البحث أيضاً جعله في قسمين اشتمل كل منهما على عدة فصول، وقد تضمن القسم الأول بيان موقع وحدود الدولة العيونية، وألقى شيئاً من الضوء على المسيرة التاريخية لهذه البلاد منذ العصر الجاهلي إلى قيام الدولة العيونية، بالقدر الذي يقتضيه بيان البعد الزمني لموضوع هذا الكتاب، وذلك بذكر لُمع مما تناولته بتفصيل أكثر في عدة إصدارات سابقة ككتاب «تاريخ هجر» وكتاب «الحركة الفكرية واتجاهاتها في شرق الجزيرة العربية وعُمان».

أما القسم الثاني من هذا الكتاب فقد عالجت فيه الانتفاضات التي مهدت لقيام الدولة العيونية على يد مؤسسها عبدالله بن علي العيوني ونجاحه في توحيد أجزائها، والأحوال السياسية في عهده وفي عهد من جاء بعده، كما ركزت على عرض أوضاع البلاد وما اعتراها من أحوال المد والجزر منذ عام ٥٣٨هـ إلى أن أفل نجم الدولة العيونية في عام ٦٣٦هـ.

وقد عُني الكتاب بالكشف عن مكانة الدولة العيونية ودورها في القضاء على القرامطة ومحو آثارهم، ورصد أهم الأحداث السياسية خلال حكم العيونيين وصراعاتهم، وما مرت به دولتهم من أطوار القوة والضعف.

وقد استلهمت المادة التاريخية لهذه الدولة من عدة أبحاث ودراسات إلى جانب ديوان ابن المقرب وشروحه، وأخص منها بالذكر ديوان ابن المقرب الصادر في الطبعة الثانية بتاريخ ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م عن مكتبة التعاون الثقافي، ومصورة نسخة مخطوطة من ديوان الشاعر الأمير علي بن المقرب العيوني خاصة بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وهي مخطوطة نادرة لشرح ديوان الشاعر المذكور مودعة أصولها في المكتبة الرضوية بمدينة مشهد في إيران تحت الرقم ٤٨٣٣، واسم ناسخها «محمد بن علي بن محمد النجار الحساوي»، تاريخ النسخ ٣ من ربيع الأول سنة ٩٦٣هـ، وقد ورد في هذه المخطوطة من المعلومات المفيدة ما لم يرد في ما اطّلعنا عليه من النسخ الأخرى للديوان، كما أنها الأكثر ضبطاً ودقة للأسماء والأحداث وإن لم تسلم تماماً من الخلط والتضارب والزيادة والنقص والتصحيف الذي يعود أكثره في ما أرى لأخطاء النُسّاخ.

من هذا المنطلق اعتبرت هذه النسخة المصدر الأهم للمعلومات الخاصة بالعيونيين وإليها أشير في هوامش الكتاب بمخطوطة الديوان، وقد ذيلت كل فصل بما يخصه من الهوامش، ولا أدّعي أنني بهذا الجهد قد وضعت دراسة وافية عن تاريخ هذه الدولة، لأن المتاح من المصادر والأدوات لا يساعد على إخراج مثل تلك الدراسة، وأقصى ما أرجوه أن يقترب هذا الكتاب من الغرض الذي أُعّد من أجله، فإن حظي بذلك فإن الفضل بعد الله يعود لصاحب هذه الجائزة الذي أبت يده الحانية إلاّ أن تمتد إلى شاعر الحماسة والطموح «علي بن المقرب»، فتنصفه من أهله ومن الدنيا ومن الزمان.

فالله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن يجعله زيادة في ميزان حسنات من دعا إلى تأليفه، وأن يثيبه على ما يبذل في وجوه الخير المتنوعة خير الثواب.

والحمد لله رب العالمين،،،

عبدالرحمن بن عثمان الملا

في تاريخ ١٥/٩/١٤٢٢هـ

الموافق ٢٠/١١/٢٠٠١م

****

القسم الأول

ملامح الحياة الحضارية

الفصل الأول
الأحوال الطبيعية والتشكيل السكاني

أ ـ الموقــع:

تشغل الدولة العيونية الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية وهو ما كان يعرف تاريخياً «بهجر» أو «البحرين» ثم «الأحساء»، وقد أطلقت هذه الأسماء على الأراضي الواقعة شرقي الجزيرة العربية على الشاطئ الغربي للخليج والجزر المقابلة له من «البصرة» شمالاً إلى «عُمان» جنوباً، ومن «الدهناء» غرباً إلى الخليج شرقاً .

ولم يكن البلدانيون والجغرافيون على اتفاق في تحديد مدلول الاسم الواحد، ففي حين يتسع مدلول «هجر» و«البحرين» ليشمل الإقليم كله عند باحث كما هو الحال عند «ياقوت»[١] و«أبي الفداء»[٢] و«الدمشقي»[٣] نجد الاسم نفسه يضيق فيختص بجزء من الإقليم أو مدينة منه، كما هو الحال عند «ابن رستة»[٤] وأمثاله، حيث يجعلون كلاً من هجر والبحرين مدينة قائمة بذاتها، ولعل الأصل في كل من هذين الاسمين كان كذلك، وأن ازدهار إحدى المدينتين وتعاظم أهميتها سياسياً أو اقتصادياً، جعل اسمها في وقت ازدهارها يطلق على الإقليم كله ويصبح علماً عليه .

ومن هنا أطلقت المصادر على الإقليم اسم «هجر» باعتبار مدينة «هجر» حاضرة الإقليم وأهم مدينة فيه، وكذلك الحال بالنسبة إلى «البحرين» .

ويبدو أن التنافس على هذه الأسماء ظل جارياً بين مناطق هذه البلاد حتى تقاسمت هذه الأسماء في ما بينها، فاختصت المدن الداخلية منها باسم «هجر» ثم «الأحساء»، واقتصر الخط على «القطيف» والمدن الساحلية، كما استأثرت جزيرة «أوال» باسم البحرين .

وهذا الإقليم بحدوده المذكورة يمثل الحدود الجغرافية والبشرية والاقتصادية للدولة العيونية، ولو أن مجال نفوذها قد تعدى هذه الحدود كثيراً أثناء حكم الأقوياء من أمرائها من أمثال «محمد بن أبي الحسين أحمد»، الذي وصل نفوذه من «نزواء» إلى «حلب»، يقول ابن المقرب بهذا الصدد:

وأحـــمـــدٌ ابـــنُه المـــلكُ الـــذي مـــنـــعتْ
مـــا بـــين نـــزوى ســـرايـــاه إلى حـــلبِ[٥]

وإذا كان هذا النفوذ لم يصل إلى حد الحكم المباشر فإن في شعر ابن المقرب ما يشير إلى وجود شيء منه، حيث كان يُجبى له الخراج من هذه الجهات يقول ابن المقرب:

وأتتْ إلـــيـه بـــالخـــراج مـــطـــيـــعـــةً
خـــوفـــاً من الـــغـــارات أهلُ عُـــمـــانِ

ويبدو أن هذا الخراج قد جاء بعد تسوية صلح واسترضاء لكثرة ما كان يشن عليهم من حروب، يقول ابن المقرب:

وإن ســـلـــمتْ نـــفسُ الأمـــيـــرِ مـــحـــمـــدٍ
شـــكتْ من ســـرايـــاه عُـــمـــانٌ وعَـــمّـــانُ
وســـارت إلى أرض الـــشـــآمِ جـــيـــوشُهُ
ولم يمـــتـــنع مـــنـــهـــا زَبـــيـــدٌ ونَـــجـــران[٦]

ويقول:

حـــمى الـــبـــرَّ من حـــدّ الـــعـــراقِ فـــحـــازهُ
إلى الـــشـــام واســـتـــولى عـــلى حـــدّ نـــاعبِ[٧]

فهذه الأبيات توضح بجلاء أن هذه المناطق تمثل للدولة العيونية في أيام الأمير «محمد بن أحمد» مجال نفوذ اقتصادي وعسكري، وربما تمتعت الدولة العيونية في مناطق أخرى ببعض النفوذ السياسي كما هو الحال في عهد «الفضل بن محمد»، الذي منحه الخليفة شيئاً من الوجاهة السياسية في الأطراف المحاذية لبلاده من فارس والعراق، يقول ابن المقرب بهذا الصدد[٨]:

وقـــضى إلـــيه أن حـــكـــمكَ نـــافـــذٌ
مـــاضٍ بـــأكـــنـــاف الـــعـــراقِ وتُـــسْـــتَـــرِ

(انظر خريطة بلاد البحرين في عهد الدولة العيونية الملحقة بآخر الكتاب).

ب. الأحوال الطبيعية

السطح والتضاريس:[٩]

يتشكل سطح هذا الإقليم من سهول ساحلية على طول الشاطئ الذي تشكل السبخات المالحة أكثر أجزائه، وهو سهل منخفض لا يزيد ارتفاعه عن سطح البحر أكثر من مائتي متر في الغالب، وسهول وسطى أكثر اتساعاً وهي تنحدر من الغرب إلى الشرق.

الصحارى:[١٠]

وتشمل الكثبان الرملية الصفراء التي يبلغ ارتفاعها أحياناً عشرات الأمتار، وتتخذ أشكالها غالباً شكل حذوة الفرس[١١]، وهي غير مستقرة فيسبب تحركها بفعل الرياح والعواصف للسكان كثيراً من المتاعب، حين يضطرهم زحف الرمال إلى التحول عن مواضعهم إلى مواضع أخرى[١٢] .

ومن أهم تلك الصحارى صحراء هضبة «الصمان» وقد سُمّيت بهذا الاسم لصلابة أرضها وتمتد من خط عرض ٢٧ شمالاً حتى واحة «يبرين» في الجنوب بطول ٣٨٠ كم، وعرض من الشرق إلى الغرب يتراوح بين ٨٠ و٢٢٥ كم .

و«الصمان» أرض واسعة بها حزوم مرتفعة وسهول وأودية، وبها مراعٍ جيدة وخبارٍ تجتمع فيها مياه الأمطار .

و«الصمان» بصفة عامة منطقة جافة خالية من الماء سوى ما يتجمع في الخباري من المطر في مواسمه .

الجبال:

في «الأحساء» جبال كثيرة منبثة في طول البلاد وعرضها وتتخذ شكل تلال منعزلة .

السواحل والجزر[١٣]:

تبلغ سواحل هذه البلاد في امتدادها من «البصرة» شمالاً إلى «عُمان» جنوباً مئات الكيلات، ويتكون معظمها من شواطئ رملية متعرجة تكثر فيها الشعاب المرجانية، ويتخللها عدة أغوار وخلجان يصلح أكثرها لاستقبال السفن منها خليج «جراء»، وهو خليج واسع تقع في مدخله جزر البحرين وبه مرفأ «العُقير»[١٤] وهو قليل العمق تكثر فيه الصخور والشعاب المرجانية، ثم يليه خليج «كيبوس» المحاذي لمدينة القطيف وفيه تقع جزيرتا «تاروت» و«دارين» وهو غير صالح لرسو السفن الكبيرة، ثم بعده من الشمال يقع خليج «المسلمية» قرب «الجبيل» وهو مسدود من ناحية البحر بجزيرة «أبوعلي»، وفي وسطه تقع جزيرة «جنة» وعلى مقربة منه تقع جزيرة «المسلمية»، وفي الشمال أيضاً يقع خليج صغير بين «منيثة» و«رأس التناقيب». ويشذ عن امتداد الساحل رؤوس من أهمها:

١ – شبه جزيرة قطر: وهي عبارة عن لسان كبير من اليابسة يتوغل داخل الخليج العربي بطول ١٣٥ كم تقريباً وبعرض ٦٥ كم .

٢ – رأس تنورة: ويقع في الطرف الشمالي من خليج «كيبوس»، ويتوغل داخل البحر إلى مسافة تمكن السفن التجارية الكبيرة من الرسو على مقربة منه .

٣ – رأس السفّانية .

٤ – رأس مشعاب .

٥ – رأس الزور عند حدود الكويت .

وهناك رؤوس تقع في الكويت نفسها وهي: «رأس عجوزة» وتقوم عليه مدينة الكويت، ورأس الأرض، ورأس القليعة في الجنوب، وتتناثر أمام هذه السواحل عدة جزر من أهمها مجموعة الجزر التي تتكون منها مملكة البحرين، وتقع في الخليج الكائن بين شبه جزيرة قطر وسواحل الأحساء، وأكبرها جزيرة البحرين ويبلغ طولها ٥٠ كم ويتراوح

عرضها بين ١٣و١٦ كم، وفي الشمال الشرقي منها تقع جزيرة «المحرّق» وبالقرب منها جزيرة «سترة» وجزيرة «النبي صالح» وجزيرة «أم النعسان» الواقعة إلى الغرب من جزيرة البحرين، وهناك أرخبيل جزر «حوّار» التي يبلغ عددها إحدى عشرة جزيرة[١٥] .

المناخ:

تقع هذه البلاد ضمن النطاق الصحراوي القاري ورغم امتدادها الطويل على سواحل الخليج فإن أثره على مناخها ضئيل جداً، ويتميز مناخها شبه المداري بعدة خصائص منها:

ارتفاع درجة الحرارة بصورة عامة وبخاصة في المناطق الساحلية، فيكون معدل متوسط درجة الحرارة العظمى في فصل الصيف ٤٢ درجة، أما الدنيا فلا تنخفض إلى أقل من ٢٩ درجة، أما في فصل الشتاء فتبلغ درجة الحرارة العظمى ٢١,٥ درجة والصغرى ٩,٥ درجات، ويلاحظ في بعض الأحيان أن درجة الحرارة تتذبذب بين هبوط وارتفاع بمقدار خمس درجات في بضع ساعات خلال اليوم الواحد .

أما الرطوبة[١٦]فإنها تكون مرتفعة في فصل الصيف، وتكون نسبة الرطوبة في المناطق الداخلية أقل منها في المناطق الساحلية وذلك بتأثير قربها من الخليج، والأمطار قليلة بصورة عامة حيث يبلغ معدلها في المتوسط أقل من ٢٥٠ ملميتراً، ويهطل أكثرها في فصل الشتاء.

المياه[١٧]:

نظراً لقلة الأمطار وندرة سقوطها على هذه الأراضي، فإن العيون والآبار الجوفية تمثل المصدر الوحيد للمياه، ورغم وجود هذه المياه في معظم أراضي الإقليم إلا أن القدر الأعظم منها يتركز في واحتي «الأحساء والقطيف» وجزر البحرين، ففي هذه المناطق توجد المياه العذبة بين الصخور الرسوبية الكلسية، ولأن هذه الرواسب آخذة في الميل نحو الشرق فإن المياه الجوفية تتحرك في هذا الاتجاه من خلال الشقوق الموجودة بين الصخور فتتخذ شكل أنهار مغمورة تحت سطح الأرض، وحين تسمح لها

الظروف الطبيعية أو الحفريات بالظهور على وجه اليابسة، فإنها تندفع بفعل الضغط الشديد وتجري على وجه الأرض في صورة أنهار نسبية تختلف مقادير كميات مياهها من مكان إلى آخر .

ومن هذه العيون ما هو جارٍ على سطح الأرض ومنها ما يستخرج ماؤه بالدلاء أو الآلات، وتنتشر بكثرة في واحات البلاد كواحة الأحساء وواحة القطيف وواحة الجوف وواحة وادي المياه وواحة الخن وواحة عقلة وواحة يبرين وجزر البحرين، ومن أشهرها في الأحساء وفي القطيف عين الجوهرية، والخدود، والحقل، وأم سبعة، وفي البحرين «عين عذاري» وفي القطيف «عين داورش»[١٨] .

ج ـ السكان والهجرات:

تشير نتائج الأبحاث الأثرية إلى أن شرقي الجزيرة العربية والأراضي الأخرى المطلة على الخليج، كانت من أقدم الأراضي التي عرفتها حياة الاستيطان البشري منذ أقدم العصور، وأنها كانت مأهولة بالسكان منذ خمسين ألف سنة .

حركة الاستيطان والبناء السكاني:

يبدأ التاريخ المدون لهذه المنطقة على حد قول السير «ويلسون»[١٩] منذ نحو سبعة آلاف سنة، عندما زحف على إيران وشواطئ الخليج جنس طويل الرأس يرجح أنه من آسيا الوسطى، ويتضح من مخلفات هذا الجنس المتراكمة كالخزف والأسلحة أن ثقافة هؤلاء المادية تعد أقدم ما رسب في هذه الأراضي من الثقافات، ويعتقد الباحثون أن شجرة النخيل، وهي مما اشتهرت بزراعته هذه الأراضي، من أهم العوامل التي ساعدت على استيطانها منذ العصور السحيقة، فقد كانت من شبه المؤكد أعظم عامل فردي في حياة الإنسان الأول في تلك الفترة .

ويرجح العلماء أن شرقي الجزيرة العربية وجنوبها الشرقي كان الموطن الأول للجنس السامي كالآراميين والفينيقيين والكلدانيين والآشوريين، وقد أشار قدماء المؤرخين إلى أن «يبرين» الواقعة جنوبي مدينة الأحساء كانت ضمن مواطن أبناء «سام ابن نوح»[٢٠]وقد سكنتها بعض البطون من عاد، كما أن الكشوف الأثرية قد أيدت

الاستيطان المبكر في ذلك الموضع، علاوة على وجود الآثار والشواهد التاريخية التي تدل على أن أقواماً من عاد وإرم قد استوطنت مواطن في بلاد البحرين، منها على سبيل المثال «ثاج» فقد وجدت هناك ركيّة نسبت إلى « لقمان بن عاد»، وقد أشار أحد الشعراء إلى قصر له بثاج استخدم في بنائه حجارة كانت «إرم» قد استعملتها في بناء لها هناك، فهو يقول:

بـنـيتُ بـثـاجٍ[٢١] مـجـدلاً من حـجـارةٍ
لأجـعـلَه عـزّاً عـلى رغم من رَغَمْ
أشمَّ طـوالاً يـصـخب الـطـيـرُ دونَهُ
له جـنـدلٌ ممّـا أعـدّتْ له إرَم

كما سكن هذه الأراضي أيضاً من قبائل «طسم» و«جديس» المنتسبة إلى إرم: بنو هف وبنو زريق وبنو مطر على حد ما جاء في كتاب القرون الخالية لابن جرير .

ويذكر الألوسي[٢٢] أن المريخات من قبائل قطر المتنقلة يعودون بأصولهم إلى «طسم وجديس»، ومن آثار هؤلاء حصن المشقّر بهجر، كما ذكرت المصادر من بين سكان البحرين الساميين قوماً عرفوا «بالكنعانيين»، ومنهم العمالقة أولاد «عمليق بن لاود ابن سام بن نوح»، ومن هؤلاء تنحدر قبيلة «جاسم» التي سكنت كلاً من البحرين وعمان، وإلى الكنعانيين هؤلاء ينتسب «الفينيقيون»[٢٣] الذين اتخذوا من جزر الخليج وسواحله الغربية سكناً لهم، وذلك قبل نزوحهم إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط .

وكما كانت هذه الأراضي الموطن الأول «للفينيقيين»، فقد كانت موطناً لشعوب أخرى «كالسومريين» و«الكلدانيين» ومنها هاجروا إلى بلاد الرافدين .

ويذكر الدكتور «جواد علي» أن هناك من يزعم أن السومريين قدموا إلى العراق من البحرين ، وكانت البحرين تعرف في النصوص السومرية باسم «دلمون»، وكانت محطة مهمة ينزل فيها الناس في هجراتهم نحو الشمال. ويسود الاعتقاد اليوم بين علماء التاريخ القديم أن «الكلدانيين» الذين استوطنوا الأقسام الجنوبية من العراق، إنما جاءوا إلى تلك الأراضي من شرق الجزيرة العربية الواقعة على الساحل الغربي من الخليج، وذلك في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ثم زحفوا نحو الشمال حتى وصلوا

إلى «بابل»، وقد ذكر «استرابون» أن «الجرهاء»[٢٤] كانت موضعاً للكلدانيين، وأن البحرين كانت في حوالي سنة ١٧٥٠ ق.م في يد قبيلة اسمها «آجارم»[٢٥]وهم أهل مدينة هجر .

وحين عرف اليونانيون السبيل إلى شواطئ الخليج، أخذت تظهر على شواطئه عدة سلالات من أمم مختلفة يتألف معظم أفرادها من بقايا جيوش الإسكندر ومن جاء بعده من ملوك اليونان والرومان، حيث أنشأت جيوشهم عدداً من المحطات على امتداد شواطئ الخليج وذلك لتزويد أساطيل السفن بما تحتاج إليه من المؤن والمياه، وبمرور الأيام تحولت تلك المحطات إلى مرافق تجارية ومستوطنات لتلك الجماعات، وعندما زال نفوذ الرومان بزوال الدولة السلوقية[٢٦]من الأراضي العراقية، ضعفت تبعاً لذلك تلك المرافق وتضاءل نشاطها، فغادرها بعض سكانها من الروم وانصهر من بقي منهم في بوتقة عموم السكان المحليين[٢٧] .

وقد سجل «استرابون وبطليموس» أسماء عدد من تلك المستوطنات والقبائل التي تقطنها، ونظراً لموقع شرقي الجزيرة في ملتقى طرق التجارة وما تتميز به من نشاط اقتصادي، فقد استقطبت العديد من الجاليات من مختلف الأجناس، فكانت تشكل جزءاً من السكان المستقرين ومنهم تتألف الفئات العاملة في مختلف المجالات الاقتصادية كالقطاع الزراعي والصناعي والتجاري، كما ترجع إلى أكثرهم ملكية معظم الأراضي الزراعية وذلك قبل أن تتغلب عليهم العناصر العربية فتصهرهم في بوتقتها ومن تلك الجاليات:

(١) « النبط »: وهم جيل من العجم، سموا بذلك لكثرة النبيط عندهم وهو الماء، ويرى المسعودي أنهم من سلالة «النبيط بن ماش بن عيلام بن سام بن نوح»[٢٨]ولعل هؤلاء ممن ظلت لهم بقايا في البلاد حتى العصر الحاضر، فقد عرفوا بنشاطهم في مجال الفلاحة والزراعة .

(٢) «السبابجة»: ويقال عنهم «السيابجة» .

(٣) «الزط » : وهم جيل من الهند على ما يروي الأزهري عن الليثي، واختلف فيهم فقيل هم السبابجة. وقال القاضي «عياض» هم جنس من السودان طوال، ويرى «عبدالرحمن عبدالكريم النجم»[٢٩] أن «الزط» سلالة هندية الأصل .

(٤) «الجرامقة»: ويتألف معظم أفرادها من النبط والعجم .

(٥) «الفرس»: ويشكلون أهم هذه الجاليات لما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي ومكانة اجتماعية متميزة، فقد ربطتهم بالعرب صلات التعاون والتناحر على السواء، ومن أبرز رجالها في البحرين عند ظهور الإسلام «فيروز بن جشيش»[٣٠] الملقب «بالمكعبر» و«المرزبان آسيابخت بن عبدالله»[٣١] وقد دخل الأخير الإسلام. وكان لكل من الجاليات السالفة الذكر عادات وتقاليد ومعتقدات ظلوا يتعصبون لها ويحافظون عليها إلى ما بعد ظهور الإسلام.

وكان بعض هؤلاء يتمتعون بالثراء والجاه والمراتب العالية والنفوذ لذا لم يتقبل أكثرهم الدخول في الإسلام حين دُعوا إليه وآثروا دفع الجزية[٣٢]، على النقيض من عرب البحرين الذين هدتهم سلامة فطرتهم وبساطة حياتهم وثقافتهم إلى سرعة الاستجابة للدعوة الإسلامية والانضواء تحت رايتها . وحين هبت زوبعة الارتداد عن الإسلام سارعت تلك الجاليات غير العربية إلى الانخراط في ركاب المرتدين بقيادة «الحطم بن ضبيعة» زعيم بكر بن وائل، وخاضت معه القتال ضد قبيلة عبدالقيس التي ثبتت على إسلامها بتوجيه من زعيمها «الجارود بن المعلى العبدي»، وحين انهارت آمال المرتدين في إطفاء جذوة الإسلام وخسروا رصيدهم الاجتماعي وامتيازاتهم السياسية، رحل أكثرهم عن هذه البلاد، ومنذ ذلك الحين صارت الغلبة في بلاد البحرين للعناصر العربية المؤلفة من قبيلة عبد القيس وبعض القبائل الأخرى «كبني تميم» و«بكر بن وائل» و«قضاعة وإياد والأزد» وغيرهم، حيث نزحت إلى هذه الجهات عشائر كبيرة منهم بعد أن تركوا «تهامة واليمن» في إثر انهيار «سد مأرب» وبسبب الحروب وسنوات القحط .

وقد تحققت لهذه القبائل عوامل السيطرة على الحياة في هذه البلاد من جوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية كافة، فانغمست في الحياة المدنية وبذلك اتخذ المجتمع الحضري في مدن بلاد البحرين وقراها شكلاً جديداً، حيث صارت البطون والأفخاذ المنحدرة من القبائل العربية السالفة الذكر تشكل اللبنات الأساسية للبناء السكاني بها .

وقد لعبت هذه القبائل أدواراً مهمة في صنع التاريخ بهذه البلاد، وإن لم تكن على مستوى واحد في التأثير والاستمرار، فقد غابت «بكر بن وائل» عن المسرح بعد حروب الردة، كما اختفى دور «قضاعة» قبل ذلك .

أما «تميم» فقد أخذ ذكرها في التلاشي والانكماش منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وظلت «الأزد» تواصل دورها العسكري والسياسي حتى ظهور الدولة العيونية في منتصف القرن الخامس الهجري، حيث شاركت في الحرب مع القرامطة ضد الأمير «عبدالله بن علي العيوني» الذي ألحق بهم الهزائم، فأجلى من تبقى منهم إلى عُمان، ومن بين من تم طرده قبيلتا «حميّ بن عيمان» و«حَدّان» يقول ابن المقرب:

لكنهم أثبتوا آساسها ونفَوْا
عنها حَمِيَّ بن عَيْمانٍ وحَدّانا[٣٣]

من هنا يمكن القول أن قبيلة عبدالقيس كانت الأكثر تأثيراً واستمراراً في صنع التاريخ السياسي لهذه البلاد وتسيير دفة الحياة بها، وقد تمثل أوج قوتها وتأثيرها في تأسيس الدولة العيونية التي حكمت البلاد مائة وثمانية وستين عاماً تقريباً وهي الفترة من ٤٦٨هـ إلى ٦٣٦ هـ، ومن المعلوم أن العيونيين هؤلاء ينحدرون من هذه القبيلة، وهذا ما يدفعنا إلى تسليط شيء من الضوء على «عبدالقيس» منذ قدومها إلى هذه البلاد وحتى قيام الدولة العيونية[٣٤] .

قبيلة عبدالقيس:

تعتبر قبيلة عبدالقيس من أبرز قبائل «ربيعة بن نزار» وقد انتشرت منازل ربيعة في كل من «تهامة ونجد»، وقد ذكر النسّابون أن لعبدالقيس ولدين هما «أفصى واللبؤ»، وسنقتصر على ذكر سلالة «أفصى»، فمن هذه السلالة تفرعت العشائر والبطون التي استوطنت شرقي الجزيرة وإليها ينتمي العيونيون .

نسب عبدالقيس:

ولد «أفصى» لكيزاً، فولد «لكيزاً» صباحاً ونكرة بطناً، ووديعة بطناً، وولد «وديعة» عمراً وغنماً بطناً، ودهناً بطناً، فولد «عمرو بن وديعة» أنماراً وعجلاً والديل بطناً، والحارث بطناً، ومحارباً بطناً.

بنو أنمار بن عمرو بن وديعة:

ولد «أنمار» مالكاً وثعلبة بطناً، وعائذة بطناً، وسعداً بطناً، وعوفاً والحارث، فولد «الحارث» ثعلبة بطناً، وعمر بن الحارث وعامر بطناً، فولد «عامر» عوفاً ومرة وربيعة وهماماً ونعماناً وعطية ومالكاً، فولد «مالك» ربيعة والوارث، وهو عامر وهداج وعبدالله وسعد وعياذاً وسليمة، وولد «عوف بن أنمار» بكراً، وولد «بكر» عوفاً، وولد «عوف» عمراً وربيعة، ووائلة، ومرة، وجذيمة، فولد «جذيمة بن عوف» ثعلبة، والحارث، وسعداً، وعوفاً، وعامراً، وكعباً، ومعاوية، وصعباً، فولد «الحارث بن جذيمة» عدياً بطناً، ومرة، وعمر، وعامراً، وسعداً ، فولد «عدي» قيساً ومالكاً والمنعم ولوذان، وولد «ثعلبة بن جذيمة» حُيياً وسلاّغاً ومعاوية، فولد «معاوية» حارثة ومعشراً وقريعاً وأسحم وعبد شمس وعمراً وحيياً، وولد«عوف بن جذيمة» مالكاً وجشعماً، وولد «عوف» عمراً، وولد «عمرو بن عوف» عوفاً وجبلاً بطناً وربيعة وربيعاً بطناً، وولد «عوف بن عمرو» عصراً بطناً.

بنو «عجل بن عمرو بن وديعة»:

ولد «عجل بن عمرو بن وديعة» ذهلاً وكاهلاً، فولد «ذهل» ظالماً، فولد «ظالم» حداداً وعمراً وغالباً، فولد «حداد» ليثاً بطناً وثعلبة بطناً، فولد «ليث» عساساً وعامراً بطناً، فولد «عساس» حدرجان وعدياً وأسوى وحيياً وعبد يغوث وحضرمياً.

بنو «محارب بن عمرو بن وديعة»:

ولد «محارب بن عمرو» حطمة وظفراً وامرأ القيس ومالكاً .

بنو «الديل بن عمرو بن وديعة»:

ولد «الديل بن عمرو» ظفراً وعوفاً وعوتقاً .

بنو «غنم بن وديعة بن لكيز»:

ولد «غنم بن وديعة» عوفاً وعمراً، فولد «عوف» الحارث ورفاعة وجابراً، فولد «الحارث» عوفاً وأسعد وثعلبة، فولد «عوف» مازناً وعبّاداً وعوفاً وعمراً وسحيماً، وولد «عمرو بن غنم» الديل ومازناً .

بنو نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس:

وولد «نكرة بن لكيز» صبرة وشقرة وعجلاً وظفراً وشزناً ومنبهاً .

بنو شن بن أفصى بن عبدالقيس:

وولد «شن بن أفصى» أزيزاً وعدياً والديل، وولد «الديل» سعداً وجذيمة وحبيباً وعمراً وهزيزاً[٣٥]وصبرة، فولد «صبرة» الجعيد فولد «الجعيد» عمراً وقد لقب بالأفكل.

هؤلاء هم أهم فروع عبدالقيس وبطونها كما جاء في كتب الإخباريين من أمثال «ابن الكلبي وابن حزم والعُتبي» .

النسبة إلى قبيلة عبدالقيس:

جاءت النسبة إلى قبيلة عبدالقيس على أربع صيغ هي: عبقسي[٣٦]، وقيسي، وعبدي، وعبد، والأولى هي الأشهر والأكثر دقة وسلامة من اللبس، فإذا قيل عن شخص عبقسي فلا ريب في انتمائه إلى قبيلة عبدالقيس دون غيرها، أما إذا قيل قيسي أو عبدي أو عبد فلا بد من التثبت من القبيلة التي ينتسب إليها، كقبيلة «قيس عيلان» و«عبدالدار» من تميم وغيرهم ممن يحمل هذه الأسماء .

وقد أوقعت الصيغ الثلاثة الأخيرة النسّابين في اللبس والخلط عند نسبة عدة شخصيات من ذلك على سبيل المثال «المنذر بن ساوى» فقد أشكلت هذه النسبة على النسّابين فنسبه بعضهم إلى «تميم» ونسبه آخرون إلى «عبدالقيس».

هجرات قبيلة عبدالقيس من تهامة إلى الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية:

كانت قبيلة «عبدالقيس» تعيش في تهامة إلى جوار أخواتها من قبائل «ربيعة» إلى أن تكاثروا وضاقت بهم تلك الأراضي، فاضطر الكثير منهم إلى الهجرة عنها إلى جهات شتى، ومما ساعد على تلك الهجرة ما حلّ بتلك البلاد من قحط وجدب إلى جانب الحروب التي اشتعل أوارها بين تلك القبائل، وكانت «عبدالقيس» قد تركت منازلها في تهامة واتجهت إلى بلاد البحرين في إثر صراع مسلح جرى بينها وبين

بعض أبناء عمومتها من بني «النمر بن قاسط»، في إثر قيام جماعة من بني «عامر بن الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفصى» بقتل سيد ربيعة «عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط»[٣٧]، يقول ابن المقرب في مسير عبدالقيس إلى البحرين:

وسارت إلى البحرين منهم عصابةٌ
مصاليتُ غاراتٍ مغاويرُ غُرّانُ[٣٨]

ولا توفر المصادر تاريخاً محدداً لهذه الهجرة إلا أن حصولها قبل القرن الرابع الميلادي مؤكد، فقد كانت قبيلة عبدالقيس ضمن القبائل العربية التي هاجمت جنوب فارس من أراضي شرق الجزيرة العربية إبّان طفولة الملك الفارسي «سابور الثاني» الملقب «بذي الأكتاف» (حكم بين سنتي ٣٠٩م و٣٧٩م)[٣٩]والتي ذكرها الطبري.

مواطن عشائر عبدالقيس في شرق الجزيرة العربية:

سارت عبدالقيس من تهامة بقيادة «عمرو بن الجعيد بن صبرة» فاختارت الإقامة ببلاد البحرين، وحين وصلتها قامت بهجوم كاسح على من كان بها من العجم والعرب «كإياد وتنوخ» فأجلتهم عنها إلى العراق، حينذاك ربطوا خيولهم بكرانيف النخل فقال كاهن إياد[٤٠]: «عرف النخل أهله»، وفي ذلك يقول «عمرو بن أسوى الليثي» من عبدالقيس بعد ذلك بزمان:

شحطنا إياداً عن وقاعٍ فقلّصتْ
وبكراً نفينا عن حياض المشقَّرِ

وبعد أن استصفت عبدالقيس أراضي البحرين تقاسمتها في ما بينها، فنزلت «جذيمة بن عوف» الخط[٤١] وأفناءها، ونزلت «شن بن أفصى» طرفها وأدناها إلى العراق، ونزلت «نكرة بنو لكيز بن أفصى بن عبدالقيس» وسط القطيف[٤٢] وما حوله، والشفار[٤٣]والظهران[٤٤]إلى الرمل [٤٥]، وبين هجر[٤٦] إلى قطر وبينونة، ونزلت «عامر بنو الحارث» والعمور وهم بنو الديل ومحارب وعجل أبناء عمرو بن وديعة بنو لكيز بن أفصى بن عبدالقيس ومعهم عمارة بنو أسد بن وديعة بنو لكيز بن أفصى بن عبدالقيس

ومعهم عمارة بنو أسد بن ربيعة حلفاء لهم الجوف[٤٧] والعيون[٤٨] والأحساء حذاء طرف الدهناء[٤٩] وخالطوا أهل هجر في دارهم، وقد احتفظت عبدالقيس بهذه المواضع حتى ظهور الإسلام .

وقد ذُكرت مناطق أخرى لعبدالقيس دون أن يُحَدَّد أي العشائر تسكنها منها المشقر والصفا وجواثا[٥٠]وسماهيج ومحلم وقبة وعدد آخر من القرى، وذكرت المصادر أيضاً عدداً من القرى لبني عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى.

وذكر ابن الفقيه أنها أضعاف قرى بني محارب، كما ذُكرت من منازلهم قطر[٥١] وجبلة[٥٢]، وذكرت المصادر لبني محارب عدداً كبيراً من القرى والمدن منها «هجر والعقير»[٥٣] .

أما جذيمة بنو عوف فمن منازلها «البيضاء» وتسمى باسمهم و«أحساء خرشاف» وقرية «آفار» لجماعة من خليد بن جذيمة، و«صلاصل»[٥٤] لبني عامر بن جذيمة، و«أوال»[٥٥] لبني مسمار بن جذيمة .

وقد حدث بعض التبدل في مواطن القبائل بعد الإسلام فقد أصبحت القطيف من منازل جذيمة بن عبدالقيس وكانت رئاستهم في بني مسمار[٥٦]، وشفار لبني عامر بن الحارث بن عبدالقيس، و«صفوا»[٥٧] لبني حفص بن عبدالقيس وكانوا بها عندما دخلها القرامطة في سنة ٢٨٧هـ، والظهران لبني سعد بن تميم وكانوا بها عندما فتحها «أبو سعيد الجنابي» سنة ٢٨٧هـ .

ويُرجع «عبدالرحمن عبدالكريم النجم» سبب هذا التبدل إلى وقوع الحرب بينهم فاضطروا إلى ترك منازلهم الأصلية إلى المناطق الأخرى، وإلى هجراتهم بعد الإسلام إلى البصرة والكوفة والموصل .

ومما تقدم يتضح مدى سيطرة قبائل عبدالقيس على معظم أراضي البحرين الأمر الذي حمل «الأخنس بن شهاب التغلبي» على القول:

لـــكلّ أنـــاسٍ من مَـــعَـــدٍّ عـــمـــارةٌ
عـــروضٌ إلـــيـــهـــا يـــرجـــعـــون وجـــانبُ
لـكـيـزٌ لـهـا الـبـحـران والـسـيفُ كـلُّهُ
وإن يـــأتـــهـــا بـــأسٌ من الـــهـــنـــد كـــارب

ومن الثابت تاريخياً أن قبيلة عبدالقيس كانت من أسبق الناس للدخول في الإسلام والانضواء تحت رايته حيث حققوا بذلك منزلة كريمة، عبّر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين وفدت عبدالقيس إليه بقوله: «يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام أشبه شيء بكم أشعاراً وأبشاراً أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا»[٥٨]، وقد تغنى ابن المقرب بهذه القبيلة في شعره فمن ذلك قوله:

وأصـبـحتْ آلُ عـبـدالـقـيسِ قـد ثـلـجتْ
صـدورُهـا فـتـرى المـوتـورَ مُـبـتـسِـمـا[٥٩]

ويقول:

أرجـــالُ عـــبـــدالـــقـــيسِ كم أدعـــوكمُ
في كلّ حـــــينٍ لـــلـــعُـــلـى وأوانِ[٦٠]

وفي بني محارب الذي ينتمي إليهم العيونيون يقول:

وإن صـــاح داعي حـــيّـــهـــا في مُـــحـــارِبٍ
أتتْ تـتـلـظّى لـلـمـنـايـا حِـرابُـهـا[٦١]

وكان بنو عبدالقيس قبل أن يصلوا إلى البحرين ويتخذوها وطناً لهم، قد أقاموا بنجد ردحاً من الزمن وكان لهم فيها ملك ورياسة عبر عنها ابن المقرب بقوله:

كـانـوا جـبـالاً لـنـجـدٍ تـسـتـقـرّ بـهـا
عن الـــزلازل إن مـــاجت وأركـــانـــا
حـتى إذا ارتحـلـوا عن جـوّهـا اضـطـربتْ
وبُـدّلتْ مـنـهـمُ خَـسْـفـاً وخـذلانـا

وأصبحت بقُرى البحرين خيلُهمُ
تجرّ للعزّ أشطاناً وأرسانا[٦٢]

نسب الأسرة العيونية ومكانتها من عبدالقيس:

تعتبر الأسرة العيونية من أبرز بيوتات عبدالقيس في بلاد البحرين، وتضرب جذورها في بني عيذ بن مرة بن عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس، وبنو عيذ هؤلاء هم بنو عائذة الذين ذكر الكلبي[٦٣] في جمهرة النسب بأنهم أحد بطني مرة بن عامر بن الحارث المار ذكرهم، والأسرة العيونية من آل إبراهيم المعروفين في هذه القبيلة وهذا واضح في ما عبر عنه الشاعر علي بن المقرب وهو يتحدث عن أصول أسرته ونسبها، وفي ما ورد عن سلاسل أنساب الأعلام من هذه الأسرة من أمثال رأس الدولة العيونية الأمير «عبدالله بن علي» وحفيده «أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله» وغيرهما، ومن ذلك قول ابن المقرب في النسبة إلى عبدالقيس:

لَعاينَ دوني عصبةً عبدليّةً
تَسامى فُرادى للعلا ومَقانبا[٦٤]

ثم إلى «لكيز بن أفصى بن عبدالقيس»:

به افتخرتْ هنبٌ وطالت بمجدهِ
لكيزٌ وعزّتْ عبدُ قيسٍ ووائلُ[٦٥]

وفي نسب أسرته إلى آل إبراهيم بن عبدالقيس قال:

ومن آل إبراهيمَ كلُّ مُذَنّبٍ
عن المجد يحتلّ الذرى والغواربا[٦٦]

ويقول وهو ينوه عن الأمير «عبدالله بن علي» ورهطه من بني إبراهيم مشيراً إلى نسبهم في بني مرة:

وما زال في أبناء مُرّةَ سيّدٌ
به في جسيمات الأمورِ ائتمامُها[٦٧]

وفي انتماء الأسرة إلى بني عيذ يقول:

ومن نسل عيذٍ فتيةٌ أيُّ فتيةٍ
يَجلّ المُعادي بأسُها فيهابُها[٦٨]

وقد جاء في شرح هذا البيت في مخطوطة الديوان ما نصه: «يعني بني عيذ بن مرة بن عامر وفي مرة البيت من بني عامر وفي عيذ العدد من بني مرة» .

وقد ورد ذكر بني عيذ هؤلاء على لسان الشاعر القطيفي «الحسين بن ثابت العبدي» في قصيدة خاطب بها عشائر عبدالقيس يستعطفهم فيها ويلتمس منهم السعي في إخراجه من السجن لدى الأمير العيوني «أبي سنان محمد بن الفضل»[٦٩]

وقد نص الأصبهاني في سياق حديثه عن الأمير «أبي سنان» على أنه «أبو سنان محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي العبدي» ثم المرّي[٧٠] .

ومما سلف يمكن الجزم بأن العيونيين من آل إبراهيم من بني عيذ بن مرة بن عامر من قبيلة عبدالقيس واستبعاد كل ما عدا ذلك من الأقوال، إذ من الخطأ الظاهر ما جاء في دراسة المديرس نقلاً عن أحد الباحثين المعاصرين من القول، برجحان انتماء العيونيين إلى ثعلب بن مرة بن عامر اعتماداً على ما ورد في مؤلفات القلقشندي عن نسب بني عامر [٧١] .

بنو عقيل:

من أهم القبائل التي استوطنت البحرين وارتبطت مع العيونيين بصلات التناحر والتصاهر «بنو عقيل»، فقد كانوا من أكثر القبائل انتشاراً في أراضي كل من البحرين والعراق وهم ينتسبون إلى «عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة» من العدنانيين، وأشهر بطون بني عقيل هم بنو عبادة وبنو المنتفق وبنو خفاجة وبنو عامر .

وقد استقرت هذه البطون في أراضي البحرين والعراق[٧٢] بعد نزوحها من «نجد» في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري، وقد تواكب ظهور

«عقيل» في البحرين مع بداية ظهور حركة القرامطة فيها عندما تحالفوا معها، وقد أشار إلى ذلك «ابن الأثير»[٧٣] في حوالي سنة ٢٨٦هـ الموافق سنة ٨٩٩ م .

وكثيراً ما يطلق اسم «بني عقيل» على بطن أو أكثر من هذه البطون، الأمر الذي يثير بعض الإشكال لدى الباحثين في التمييز بين الفرع والأصل، ويرجع ذلك على ما يظهر لتجاورهما في المسكن[٧٤]، ويعتبر«بنو عامر» أهم القبائل العربية في البحرين بعد قبيلة «عبدالقيس» من حيث القوة ووفرة العدد وسعة الانتشار، والاستئثار بالسيطرة السياسية والاقتصادية في البلاد خلال فترة طويلة من تاريخها .

أما«حمد الجاسر»[٧٥] فيرى أن بني عامر في الأصل من بني عبدالقيس، غير أن إقامة بطون من «بني عامر بن صعصعة» في هذه النواحي واتفاق اسم القبيلتين سبّب اختلاطهما، فتكوّن من ذلك بروز بطن من مختلف تلك القبائل وعرفت باسم «بني عامر» ثم «ببني خالد» في عصور متأخرة منذ القرن الحادي عشر الهجري إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري .

ولعل التقارب في الأصل والموطن هو الذي حمل البعض على إطلاق اسم أحد البطون على الأخرى، أو استعمال اسم جامع لكافة هذه الفروع في هذا الامتداد الجغرافي والقبلي المتصل .

ومن أشهر بطون بني عامر في البحرين «الشبانات» المنسوبين إلى زعيمهم «شبانة»، و«القديمات» المنسوبين إلى زعيمهم «قديمة»، و«الغفيلات» المنتسبين إلى زعيمهم «غفيلة»[٧٦]، وبنو شريك، ومرة، وخالد، وقيس، وبنو مالك، وبنو الحارث، وبنو الليث، وبالعديد من بيوتات هذه القبائل تغنى ابن المقرب في شعره، من ذلك قوله:

ومن ذا يُسامي مُرّةً وبها سمتْ
بنو عامرٍ عزّاً وجاز اغتشامُها
وكم سيّدٍ في مالكٍ ذا[*] نباهةٍ
إذا فقدتْه الحربُ طال أيامُها
وما مالكٌ إلا الحماةُ وإنْ أبتْ
رجالٌ فبالآناف منها رَغامها

وفي حــارثٍ والــلَّــبْـؤِ(**) غُــرٌّ غــطــارفٌ
يُــبِــرُّ عــلـى الـخــصـم الألــدّ خــصــامــهــا[٧٧]

وقد شغلت مضارب عشائر عامر مناطق واسعة من بوادي البحرين، فقد قال «الشريف الإدريسي» في القرن السادس الهجري: ويتصل بالقطيف من ناحية البصرة بر متصل لا عمارة فيه أي ليس فيه حصن ولا مدينة، إنما به أخصاص لقوم عرب يسمون «عامر ربيعة»، فهذا الوصف يعكس بوضوح المدى الواسع لانتشار بني عامر في أراضي البحرين، بحيث أصبحوا يشكلون الجزء الأعظم من سكانها والقوى القادرة على النهوض بالأعباء السياسية فيها، وبخاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين .

وهناك إلى جانب عبدالقيس وبني عامر بعض عشائر من «خندف» وأخرى «قحطانية» أشار إلى وجودهم ابن المقرب بقوله:

ومن كــان مــنــا من جــمــاهــيــر خِــنــدفٍ
وقــيسٍ فــأتــرابُ الــوغى ونِــدامُــهــا
ومــا في بــنـي قــحــطــانَ إن شُــنَّتِ الــوغى
تــوانٍ ولا يــنــضــو لــديــنــا حــســامــهــا[٧٨]

ومن الواضح أن قطاعات كبيرة من هذه العشائر قد هجرت حياة البداوة واستقرت في المدن والقرى بالبحرين إلى جانب العناصر المتحضرة ممن أشرنا إليهم سلفاً، فأسهمت معهم في صياغة الحياة الحضرية من خلال المشاركة في ألوان النشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كافة، في حين فضلت قطاعات أخرى من تلك القبائل الإقامة في الصحراء والاحتفاظ بما لها من الخصائص العشائرية معتمدة على الرعي والتنقل في حياتها المعاشية مع مواشيها».

****

الهوامش

(١) ياقوت: ياقوت بن عبـدالله الحمـوي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ج ١، ص ٥٠٦، ٥٠٧ .

(٢) أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، ص ٩٩ .

(٣) الدمشقي: شمس الدين الدمشقي محمد بن أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص١٢٠ .

(٤) ابن رستة: أبوعلي أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، بريل، ليدن ص ٩٦ .

(٥) عبدالفتاح محمد الحلو: ديوان ابن المقرب، مكتبة التعاون الثقافي، الطبعة الثانية، ص ٧٩ .

(٦) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، ص ٥٩١ .

(٧) ناعب: قبيلة بعُمان تسكن جبلاً يعرف بجبل النعب، مخطوطة ديوان ابن المقرب، ص ٤٦ .

(٨) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، ص٢٢٣ .

(٩) عبد الرحمن بن عثمـان المـلا: تاريخ هجر، السطح والتضـاريس، مكتبة التعاون الثقافي، ط ١، ج ١، ص ١٤ .

(١٠) محمود شاكر: البحرين، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ص ١٢ .

(١١) الملا: تاريخ هجر، ج ١، ص ١٤ .

(١٢) عبدالرحمن عبدالكريم النجم: البحرين في صدر الإسلام، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد، ص ١٨ .

(١٣) الملا: تاريخ هجر، ج ١، ص ١٦ .

(١٤) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، مكتبة الحياة، بيروت، ط ٢، ص ٢٠ .

(١٥) محمود شاكر: البحرين، ص ١٦٤ .

(١٦) محمود شاكر: البحرين، ص ١٦٩ .

(١٧) الملا: تاريخ هجر، ج ١، ص ١٨ .

(١٨) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، ط ٢، ص ٢٠٩ .

(١٩) السير أرنولد ويلسون: تاريخ الخليج، ص٦٣ .

(٢٠) د .جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ج ١، ص٣٠٥ .

(٢١) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية – المنطقة الشرقية «البحرين قديماً»، منشورات دار اليمامة، ق ١، ص ٣٠٧ .

(٢٢) الألوسي: تاريخ نجد، مخطوط، ص ٩٢ .

(٢٣) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، مكتبة الحياة، بيروت، ص ٦٦ .

(٢٤) محمد بن عبدالله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر: تحفة المستفيد، مكتبة المعارف، الرياض، ج ١، ص ٥٥ .

(٢٥) د.جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٥٤٥ .

(٢٦) د.جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٩ .

(٢٧) الملا: تاريخ هجر، ج ١، ص ٣٠ .

(٢٨) أبو الحسن بن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٥–٢٦ .

(٢٩) عبدالرحمن عبدالكريم النجم: البحرين في صدر الإسلام، مرجع سابق، ص٤٥ .

(٣٠) عبدالرحمن عبدالكريم النجم: المرجع السابق نفسه، ص ١١٨ .

(٣١) المرجع السابق نفسه: ص ١١٨ .

(٣٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢ .

(٣٣) مخطوطة ديوان الشاعر الأمير علي بن المقرب العيوني، الناسخ: محمد بن علي بن محمد ابن علي بن داود النجار الحساوي، تاريخ الفراغ من النسخ: ١٣ من ربيع الأول سنة ٩٦٣هـ، لخزانة الفقيه إبراهيم بن حسن بن زهير، خاص بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، أصل المخطوطة في المكتبة الرضوية بمدينة مشهد في إيران قسم الأدب، ص ٥٥٦، وستكون الإشارة إليها في الصفحات التالية بمخطوطة الديوان .

(٣٤) عبدالله بن مسلم بن قتيبة: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط ٢ .

(٣٥) عبدالرحيم بن يوسف آل الشيخ مبارك: قبيلة عبدالقيس منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، ط ١، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، سنة ١٤١٥هـ، سنة ١٩٩٥م، ص١٣ .

(٣٦) أبوسعيد عبدالكريم بن محمد السمعاني: الأنساب، تحقيق: محمد عوانة، مطبعة محمد هاشم الكتبي، بيروت، ج ١، ص ٧ .

(٣٧) سُمّي بالضحيان: لأنه كان يجلس لقومه ضحى للفصل في خصوماتهم لكونه سيدهم وصاحب مرباعهم، العتبي: سلمة بن مسلم الصحارى، الأنساب، عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ج ١، ص ١٥٢ .

(٣٨) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، ص٥٩٠ .

(٣٩) سُمّي بذي الأكتاف: لأنه كان ينزع أكتاف الرجال، ابن الأثير: عزالدين بن الحسن علي ابن محمد، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣٠٢ .

(٤٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب العيوني: للناسخ: محمد بن علي النجار الحساوي، لخزانة: الفقيه إبراهيم بن حسن بن زهير، خاص: بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري .

(٤١) الخط : الساحل الممتد من عُمان إلى البصرة، البكري: عبدالله بن عبدالعزيز البكري، معجم ما استعجم، عالم الكتب، بيروت، ج ١، ص ٨١ .

(٤٢) مدينة كبرى بالبحرين: الحسن بن أحمد الهمداني: صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة، ص ٢٧٩ .

(٤٣) الشفار: جزيرة بين أوال وقطر، فيها قرى كثيرة وهي من المدن التابعة لهجر وتعد من المدن الدارسة وربما غمرتها مياه الخليج، الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٣ .

(٤٤) الظهران قرية بالبحرين، وهي الآن من المدن الهامة والمتطورة بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٣ .

(٤٥) الرمل: قال ياقوت: الرملة واحدها رمل، وهي قرية لبني عامر من بني عبدالقيس بالبحرين، معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٩ – وتوجد حالياً قرية في شرق واحة الأحساء تعرف باسم الرميلة لعلها البقية الباقية من الرمل .

(٤٦) هجر: مدينة بالبحرين وهي قاعدتها ومدينتها العظمى، ناحية البحرين كلها يطلق عليها هجر، الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣٤٠ .

(٤٧) الجوف: وتعني المكان المطمئن من الأرض، وهو مكان معروف في الجهة الشمالية من الأحساء وبها مراعٍ طيبة، الحموي: ج٢، ص١٨٧ .

(٤٨) العيون: موضع قديم بالبحرين، الحموي: ج ٤، ص ١٨١ .

(٤٩) الدهناء: صحراء غرب الأحساء، البكري: معجم ما استعجم، ج ١، ص ٨١ .

(٥٠) جواثا: مدينة بالبحرين لعبدالقيس، وهي أول موضع جمعت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٧٤ . ولا تزال جواثا معروفة في واحة الأحساء وبها بقايا من مسجد عبدالقيس .

(٥١) قطر: قرية بالبحرين على سيف الخط بين عُمان والعقير وإليها تنسب الثياب القطرية، الحموي: ج ٤، ص ٣٧٣ . والمراد شبه جزيرة قطر التي تقوم عليها دولة قطر في العصر الحاضر .

(٥٢) جبلة: قرية لبني عامر بن عبدالقيس بالبحرين، الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ١٠٦ .

(٥٣) العقير: ساحل وقرية دون القطيف، الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٩ . ولا يزال الموضع معروفاً وكان أهم الموانئ في الأحساء إلى زمن قريب .

(٥٤) صلاصل: ماء معروف بمنطقة الجوف شمال الأحساء، الحموي: ج٣، ص ٤١٩ .

(٥٥) أوال: قرية بالبحرين وقيل جزيرة، وسميت بأوال نسبة إلى صنم كان لبكر بن وائل وتغلب تشاركهم فيه عبدالقيس، البكري: ج ١، ص ٢٠٨ .

(٥٦) بنو مسمار: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، التنبيه والإشراف ص ٣٥٦، ٣٥٧ .

(٥٧) صفوا: التنبيه والإشراف، المرجع السابق .

(٥٨) أحمد بن حنبل: مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص ٤٣٢ .

(٥٩) مخطوطة الديوان: علي بن المقرب العيوني، ص ٤٨١ .

(٦٠) مخطوطة الديوان: علي بن المقرب العيوني، ص ٥٨٥ .

(٦١) مخطوطة الديوان: علي بن المقرب العيوني، ص ٣٦ .

(٦٢) مخطوطة الديوان: علي بن المقرب العيوني، ص ٥٥٥ .

(٦٣) مجلة الوثيقة: عدد٣٥، رمضان سنة ١٤١٩هـ، يناير سنة ١٩٩٩م، السنة الثامنة عشرة.

(٦٤) عبدالفتاح الحلو: ديوان الشاعر علي بن المقرب: ص٣٠ .

(٦٥) مخطوطة ديوان الشاعر علي بن المقرب: ص ٣٢٠ .

(٦٦) مخطوطة ديوان الشاعر علي بن المقرب: ص ٣٠ .

(٦٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٠٨ .

(٦٨) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٣٦ .

(٦٩) مجلة الوثيقة: عدد٣٥، رمضان سنة ١٤١٩هـ، يناير سنة ١٩٩٩م، السنة الثامنة عشرة.

(٧٠) المديرس: مخطوطة ماجستير في التاريخ الإسلامي بعنوان إقليم البحرين في العصر العباسي ، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود ، ص ٧٤ .

(٧١) المرجع السابق .

(٧٢) د.عبداللطيف الحميدان: مجلة العرب، عدد رجب وشعبان سنة ١٤٠٠هـ .

(٧٣) ابن الأثير: عزالدين أبو الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت .

(٧٤) د.عبداللطيف الحميدان: مجلة العرب، عدد رجب وشعبان سنة ١٤٠٠هـ .

(٧٥) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ج ١، ص ٥٧ .

(٧٦) حمد بن لعبون: تاريخ ابن لعبون، مخطوط، ص ١٨ .

(*) في ديوان ابن المقرب، تحقيق د. عبدالفتاح الحلو: (ذي) انظر: صفحة ٤٦٢.

(**) في ديوان ابن المقرب، تحقيق د. عبدالفتاح الحلو: (والليث) انظر: صفحة ٤٦٢.

(٧٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٠٨ .

(٧٨) عبدالفتاح الحلو: الديوان، ص ٤٦٣ .

✱✱✱✱

الفصـــل الثاني

مراكز الاستيطان الحضري

المراكز الحضرية:

وكما تقاسمت البطون والأفخاذ البدوية من القبائل السالفة الذكر مواضع المياه والمراعي من براري هذه البلاد وباديتها، فقد استقرت القطاعات المتحضرة منها في مناطق ثلاث هي: واحة الأحساء، وواحة القطيف، وجزر أوال، فقد أنشأوا فيها المدن والقرى والأرياف، فأصبحت بما تمتلك من المنشآت العمرانية وقواعد التنمية الاقتصادية والتقاليد الاجتماعية والحياة الثقافية، من أهم المراكز الحضارية في الجزيرة العربية .

ولأن المقام لا يتسع للإسهاب في إبراز ملامح الصورة عن هذه المراكز، فسنكتفي بذكر ما لا غناء عنه في إبراز معالم البُعد الحضاري لهذا التاريخ .

أ. الأحساء :

أصل الأحساء ومدلوله:

الأحساء بفتح الألف وإسكان الحاء المهملة وفتح السين المهملة بعدها ألف ممدودة اسم كان يطلق إلى خمسين سنة خلت على ما يعرف الآن بالمنطقة الشرقية، وهي الأراضي الواقعة بين الخطين ٥١ و٤٥ شرقي جرينيتش والخطين ٣٠ و٢٣ شمالي خط الاستواء[١]، والأحساء لغة كما جاء في معجم البلدان «لياقوت»[٢]: «الأحساء» بالفتح والمد جمع «حِسْي بكسر الحاء وسكون السين، قال «الحسن بن مطيرة الأسدي»[٣] :

أين جيرانُنا على الأحساءِ
أين جيرانُنا على الأطواءِ ؟

فـــارقـــونـــا والأرضُ مُـــلـــبَـــسَـــةٌ نَـــوْ
رَ الأقـــاحـــي تُـــجـــاد بـــالأنـــواء
كلَّ يـــومٍ بـــأقـــحـــوان ونَـــوْرٍ
تـــضـــحك الأرضُ من بـــكـــاء الـــسـمـــاء

و«الحَساء» بفتح الحاء والسين المهملتين بعدها ألف ممدودة لغة في الأحساء، قال علي بن المقرب :

يـــاحـــبّـــذا وادي الحَـــســـاء فـــإنّهُ
لـــو ســـاءني وادٍ إليَّ مُـــحـــبَّبُ[٤]

ومدلول الأحساء اللغوي والطبوغرافي على ما يصف العلماء من أمثال: «أبي منصور الأزهري»، و«المبرد»، و«الهمداني»، و«ياقوت»، اسم يطلق على كل أرض صخرية صلبة تغطيها طبقة رملية تحتفظ بمياه الأمطار زمناً طويلا، إذا بحث عنه طالبه وجده ماءً بارداً عذباً صالحاً للشرب .

وقد صار الأحساء علماً على مواضع متعددة في جزيرة العرب أهمها وأشهرها أحساء «هجر»، التي أطلقت عليها المصادر أحساء «بني سعد» كما عُرفت فيما بعد بأحساء القرامطة. ويظهر أن الأحساء هذه كانت تغطي مساحة واسعة من هذه البلاد، ومن هنا يمكن القول إن السبب في إطلاق اسم الأحساء على الموضع السالف الذكر يعود للعلاقة بين مدلول الاسم لغوياً، والطبيعة الطبوغرافية لتلك المواضع.

وإذا كان الأمر كذلك فإن أجزاءً كثيرة من أراضي شرقي الجزيرة يمكن اعتبارها أحساءً لانطباق معنى الاسم عليها، الأمر الذي يحملني على الاعتقاد بأن اسم الأحساء كان علماً على عموم الإقليم أو على جزء كبير من أراضيه، ومن هنا يمكن القول إن إطلاق اسم الأحساء على إقليم البحرين لا يرتبط باسم المدينة التي عمرها القرامطة واتخذوها حاضرة لملكهم، والتي أومأ بعض المؤرخين إلى أن الإقليم استمد اسمه منها لشهرتها في ذلك العهد. واسم الأحساء قديم أشارت إليه النصوص الآشورية بلفظ

«حازو»[٥] و«خازو» على اعتبار أنه قسم من الأراضي الواقعة على الساحل الشرقي لجزيرة العرب، فقد ورد نص للملك الآشوري «أسرحدون» أنه قام في سنة ٦٧٦ق.م. بالزحف على القبائل العربية التي تقطن أرض «بازو وحازو»: وهما من أراضي البحرين على رأي الباحثين المحدثين[٦].

ويرى بعض الباحثين أن «بازو» تعني الأرض الواقعة على ساحل الخليج، وأن خازو «حازو» هي الأحساء، وينبه الدكتور «جواد علي» إلى ما يراه من تقارب كبير بين «حازو» والأحساء، لذا نرى أن هذا الاسم يشمل الإقليم كله قبل بروز عاصمة القرامطة على خريطة العمران .

تأسيس مدينة الأحساء :

ينسب المؤرخون كـ«ناصر خسرو» تأسيس الأحساء إلى «أبي طاهر سليمان بن الحسن بن أبي سعيد الجنابي القرمطي» سنة ٣١٤هـ، غير أن المصادر تحدثنا بأن الموضع الذي أنشأت عليه هذه المدينة في نظر عدد من المؤرخين والبلدانيين العرب، كان يعرف بأحساء «بني سعد» من أولاد «زيد مناة من تميم»، حيث كانت منازلهم تشغل مواضع كثيرة من أراضي هجر بدءًا من «يبرين» جنوباً حتى أحساء هجر، وقد كانت الأحساء هذه مقر إقامة رئيسهم وعاملهم «إبراهيم بن موسى» وأخلاط من هذه العشيرة[٧]، لذلك عرفت بإضافتها إليهم ولم تزل على هذا الحال حتى ظهر «أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي» في ساحة الصراع، وشرع في حصار مدينة هجر من بداية العقد التاسع من القرن الثالث الهجري، فأسّس بعض الدور له ولخاصته بالأحساء، فكان أول من قطنها من القرامطة، وهذا واضح في ما ذكره المقريزي[٨] .

وبناءً على ذلك فإن نسبة بناء مدينة الأحساء إلى «أبي طاهر القرمطي» سنة ٣١٤هـ على حد زعم من نسبها إليه لا تعني كونه المؤسس، بل نسبتها إلى «أبي طاهر» لكونه الذي عمّرها وحصّنها وأحاطها بالأسوار وأطلق عليها اسم «المؤمنية»، غير أن هذا الاسم لم يكتب له الاستمرار فقد ظل اسم الأحساء مستعملاً ولكن بإضافته إلى القرامطة بعد أن تجرد من نسبته إلى «بني سعد».

موقعها :

تقع مدينة الأحساء القديمة كما تشير الآثار في الشمال الشرقي من مدينة «الهفوف» في موقع الحقول الكائنة جنوب شرقي «المبرّز»، فهي تشمل كامل قرية «البطالية» وما حولها من بساتين النخيل، وفي غياب معلومات رسمية توضح حدود قرية البطالية[٩] فإن الباحثين وفي مقدمتهم فهد بن علي الحسين، يتخذون من المعالم الطبيعية المرتبطة بالقرية والمساحات الزراعية التي ترويها عين الجوهرية المعروفة هناك إطاراً أولياً لحدود القرية في الوقت الراهن. ومن هنا يرى الحسين[١٠] أن أقصى الحدود الشمالية للقرية يتصل ببر «الرفيعة»، أما ناحيتها الجنوبية فمن المتعذر وضع حد تقريبي له بسبب تداخل الأراضي المزروعة وعدم وجود معلم يميزها، وأقصى الحدود الغربية للقرية يحاذي الحافة الشرقية لموقع «بهيتة»، أما حدها الشرقي فيقترب من طرف السهل الغربي لجبل «الشعبة»[١١]، وموقع القرية حالياً يقع قريباً من الطرف الشرقي لواحة الأحساء . وعلى ضوء الدراسة الميدانية التي قام بها الباحث فهد الحسين للمواقع الأثرية التي تنتشر حول موقع مدينة «البطالية» وبداخلها، استطاع حصر البحث عن موقع مدينة الأحساء التاريخية في البقعة المحصورة بين جبل «الشعبة» وبر «الرفيعة» و«الشراع» و«بهيتة» و«السليت»، وعلى ذلك فإن قرية البطالية تمثل جزءاً كبيراً منها[١٢]، فقد سجل المسح الميداني الذي أجراه في المواقع هناك عدداً من المواقع التاريخية والأثرية بالقرية، وهي مواقع ذات صلة بمدينة الأحساء ذكرتها المصادر كمواقع تمثل أجزاء من تخطيط تلك المدينة، ومن أهمها عين «الجوهرية» وقصر «قريمط» و«الرحل» وحقل «الخايس» و«القرحاء» و«الجريعاء». ومن دواعي اعتقاده[١٣] برجحان كون تلك المواقع تمثل أجزاءً من تخطيط مدينة الأحساء توافق ترتيب مواقعها على خريطة الدراسة الميدانية مع سياق الأحداث التاريخية، وهو ما يتوافق تماماً مع ما أثبته المسح الميداني الأثري لتلك المواقع، إذ يقع بستان «الخايس» حالياً إلى الجنوب من موقع «الرحل»، في حين أن «الرحل» يقع ملاصقاً لتل قصر «قريمط»، وهو ما عبرت عنه المصادر (و«الرحل» قريب من دار السلطنة، والمراد بدار السلطنة قصر «القرمطي»).

التخطيط الأولي لمدينة الأحساء في الفترة القرمطية والعيونية:

أ- مدينة الأحساء في الفترة القرمطية:

بنيت مدينة الأحساء على نمط المدن المدورة[١٤] وهي عبارة عن مدينتين إحداهما وسط الأخرى، ولكل منهما سور وأبواب ويحيط بكل منهما أربعة أسوار دفاعية متعاقبة على هيئة حلقات متحدة المركز في شبه دائرة كاملة، في حين تضم أسوارها مدن وريف قرى الأحساء[١٥]، وتقدر المصادر المسافة بين كل سور وآخر من أسوار المدينة الأربعة قرابة فرسخ.

التقسيمات الداخلية لمدينة الأحساء:

تشغل مدينة الأحساء المركزية المعروفة في العهد القرمطي باسم «المؤمنية» وسط مخطط مدينة الأحساء الكبرى، وهي المنطقة المحصورة داخل السور الأول وكانت محل إقامة الأسرة «الجنابية» الحاكمة. وتذكر المصادر أنها قصر عظيم منيف البناء[١٦]. ولأهمية هذه المدينة فقد جرى تحصينها تحصيناً جيداً، حيث أحيطت بسور ضخم يحيط به من الخارج خندق مليء بالمياه وعلى مداخلها أبواب من الحديد. وتذكر المصادر أن «المؤمنية» في العصر الجنابي كانت تضم بداخلها العرش الملكي، وهو عرش كان يجتمع فيه الحكام الجنابيون الستة المعروفون ووزراؤهم، وتصف المصادر هذا العرش بأنه عبارة عن منصة صُفّ عليها ستة كراسي يجلس على كل منها أحد الحكام من ذرية أبي سعيد تقابلها منصة صُفّ عليها ستة تخوت يشغلها وزراؤهم الستة[١٧]، وتحيط بهذه المدينة مدينة الأحساء الكبرى وبها يقيم جمهور الناس وأتباع الجنابيين وجنودهم . وتمتلك هذه المدينة نعيم المدينة المتقدمة من دور وأسواق ومصانع ومستودعات ومرافق عامة وميدانين للعروض العسكرية والتدريب، وتنتشر بين أسوارها مزارع النخيل والحبوب وحدائق الفاكهة والخضراوات، وبها عدة عيون جارية من أهمها: «الجوهرية»، و«الخضيرة»، و«القحيبات»، وسيأتي الحديث عنها لاحقاً، وكانت العناية بالزراعة فائقة والماء ينتفع منه بصورة جيدة[١٨].

ب - مدينة الأحساء في العهد العيوني:

أما في العهد العيوني فإن المدينة على ما يظهر لم تظل على ما كانت عليه من الاتساع وقوة التحصين، رغم أن الأمراء العيونين قد اتخذوا من المدينة المركزية بها مقراً لكرسي حكمهم، منذ الوهلة الأولى التي استولى فيها الأمير عبد الله بن علي العيوني على مقاليد الحكم في البلاد سنة ٤٦٩هـ الموافق ١٠٨٣م، بعد نجاحه في الإطاحة بالقرامطة، وهو ما عبر عنه الشاعر علي بن المقرب بقوله:

وإن تـأتِ قـصـرَ الـقـرمـطيِّ تجـدْ بهِ
جـمـاجمَ قـومي والـقـرومَ المـصـاعـبـا[١٩]

وكانت تنعت آنذاك بدار الملك أو دار السلطنة . ويبدو أن الاهتمام بالحماية والتحصين كان قاصراً على المدينة المركزية فحسب، أما المدينة الكبرى فلم تكن العناية بأسوارها كبيرة فتداعى بعضها أو أزيل، وربما حصل ذلك في أواخر الدولة العيونية أو أن الأمراء العيونيين لم يكن لديهم من المخاوف أو الشعور بالخطر مثلما لدى القرامطة، فأهملوا العناية بتلك الأسوار ولم يظل بها سوى السور الأول المحيط بالمدينة المركزية والسور الداخلي الذي كان يحيط بمدينة الأحساء الكبرى. يمكن فهم ذلك من قول ابن المقرب وهو يدعو للمدينة بالسقيا وهطول الغيث:

وجـاد من الجـديـد إلى المـصـلّى
إلى الحـصـنـين وَكّـافُ الـركـابِ

وقد قام الباحث فهد الحسين برسم خريطة أولية بها أجزاء من تفاصيل مخطط مدينة الأحساء[٢٠]، مسترشداً بما ورد في المصادر من إشارات إلى تلك المدينة علاوة على ما أجراه في الموقع من مسح ومجسّات.

ومما ذكره بهذا الصدد أن للمدينة أربعة دروب ومداخل كانت تتوزع على سوري المدينة الداخليين الأول والثاني وهي:

١- المدخل والدرب الشمالي: ويقع في الجانب الشمالي من المدينة ويتصل به درب واسع يسمى درب الشمال أو درب «الثليم».

٢- المدخل والدرب الجنوبي: ويقع من ناحية الجنوب للمدينة في المنطقة الواقعة بين بستان «الخايس» و«الرحل».

٣- المدخل والدرب الشرقي: ويقع قريباً من «الجريعاء» (أم الدجاج)، ويؤدي إلى درب «الحنائد» الواقع شرقي مدينة الأحساء.

٤- المدخل والدرب الغربي[٢١]: ويقع غربي مدينة الأحساء ، قريباً من موقع «بهيتة» غربيّ قرية البطالية، وأمام هذا المدخل يقع ما يعرف «بالعطيفة» وهو سور قصير منكسر توضع فيه التمور قبل تخزينها. وكان يقيم على حراستها بالتناوب رجال من المحاربين الأشداء، وقد ورد ذكره في أخبار اليوم المعروف «بيوم العطيفة»، وقد جاء عن هذا اليوم من شرح ديوان ابن المقرب ما ملخصه أن الأمير العيوني أبا القاسم مسعود بن محمد جعل على رهطه من آل إبراهيم في حراسة العطيفة نوبة، وفي إحدى نوباتهم قرر البدو مهاجمة البلد ونهب ما بالعطيفة، وبخاصة لما علموا من عيونهم أن الذي كان في تلك النوبة ثلاثون رجلاً فقط من آل إبراهيم ، وقدموا لهجومهم بنفر قليل في شكل لصوص بقصد إشغال القائمين على الحراسة وصرف انتباههم عما سيحدث، ثم أتبعوا ذلك بشن هجوم شامل تصدى له أولئك الفرسان وتمكنوا من إيقافه حتى وصلت النجدة من البلد وتم طرد البدو[٢٢].

وكانت الدروب السالفة الذكر تخترق ريف مدينة الأحساء الكبرى وما يتخلله من قرى حتى تلتقي عند المدينة المركزية التي تتكون أحياؤها من:

١- الحي الشرقي: ويعتقد الحسين[٢٣] أن قرية البطالية تشغل جزءاً كبيراً منه.

٢- الرحل: ويقع قريباً من أسوار دار السلطنة شرقيّ وجنوب شرقيّ تل قصر «قريمط» حالياً ، ويقوم على جزء منه الآن بعض بيوت حي «الرابية» وشريط زراعي صغير[٢٤]. ويعتبر «الرحل» أعظم وأشرف الأحياء بمدينة الأحساء لاحتوائه على دواوين الدولة العيونية، ففيه مجلس الحكم ومجمع الملوك

والمشايخ وأكابر البلد وتجتمع فيه العساكر وقت الحرب[٢٥]، وبه ديوان الخزائن ودواوين الجند وديوان الإقطاع[٢٦]. وكان يتولى «الرحل» إبان الحكم العيوني أمراء من الأسرة العيونية الحاكمة، ذكرت المصادر عدداً منهم من بينهم: أبو المقرب الحسين بن غرير بن ضبار بن عبدالله العيوني، وابناه مقرب وأبو شكر المبارك، وحواري بن رشيد بن حواري[٢٧] وعلي بن يوسف بن ظبار بن عبدالله بن علي العيوني . وكان أمير «الرحل» يتمتع بصلاحيات واسعة يمكن اعتبارها بمنزلة الحاجب في دواوين الخلفاء والملوك السابقين، أو رئيس مجلس الوزراء في هذا الوقت، فقد كانت ترد إليه جميع أمور السلطنة[٢٨]، وإن له موكباً خاصاً يتقدم السلطان العيوني عند خروجه لمصلى العيد خارج الأحساء، وكان يركب أمام الموكب السلطاني والشتر (المظلة) مرفوع على رأسه والأعلام من حوله وأمامه، وكان يلبس في يديه سِوارَيْ الملك وهما من ذهب في رأس كل منهما درتان ثمينتان[٢٩]. ويصف الشاعر ابن المقرب هذا الموكب بقوله:

إذا ما سار تحت الشترِ(*) أنسى
جلالةَ قيصرٍ والهُرْمُزانِ
وفي يده سِوارُ الملكِ يُزهي
بمعصم ماجدٍ سَبْطِ البَنان

وهناك ما يشير إلى وجود موقعين يحمل كل منهما اسم الرحل، وأنهما كانا متجاورين تفصل بينهما مساحة مفتوحة.

٣- حي الثليم أو الشمال: ويقع شمال مدينة الأحساء على يمين الداخل إلى المدينة من بابها الشمالي، وبالقرب من هذا الحي يمر الشارع الرئيسي للمدينة أو دربها الأعظم المعروف في المصادر بدرب الثليم أو درب الشمال. وكان يوجد في الحي المذكور مسجد عرف بمسجد الشمال أو الثليم، وفي هذا الحي كانت تقع دور الشاعر علي بن المقرب ومسكنه الخاص[٣٠]، وقد تكرر ذكر هذا الحي على لسان ابن المقرب من ذلك قوله:

فـيَـمّمْ لجـرعـاء الـشـمـالِ فـإنّ لـي
بـهـا حِـلّـةً أشـتـاقـهـا وملاعـبـا
وقِفْ وقـفـةً بـالـدرب غـربيَّ بـابـهـا(**)
فـثَـمَّ تُـلاقي أسـرتـي والأقـاربـا

ويرى الباحث فهد الحسين[٣١] احتمال قيام هذا الحي على الموقع المعروف ببر الرفيعة أو قريباً منه، وكان هذا الموقع قد درس وعثر به على بعض شواهد استيطان قديم وكسر فخارية، بعضها من نوع الفخار المزجج السلجوقي الذي اقترن تاريخه بالقرنين الخامس والسادس الهجريين، وهو ما يتوافق مع الاستيطان العيوني بالموقع.

الحقول والبساتين:

تذكر المصادر أن مدينة الأحساء كانت تحتضن داخلها عدداً من المزارع وحقول النخيل، وكانت تقع في المساحات القريبة من السور الخارجي، وقد أوردت المصادر العيونية موقعاً أطلقت عليه اسم «مرغم» وآخر عرف باسم «الجو ذي النخل». ويرى الحسين أن «مرغم» كان يشغل المنطقة الواقعة وسط المدينة في امتداد يصل إلى سورها الجنوبي وبه حقل «الخايس»، ويقع إلى الجنوب من قرية البطالية حالياً ولا يزال يحمل الاسم نفسه، وكان يجاوره نهر «البحير»، وقد دارت فيه رحى معركة بين أحد الأمراء العيونيين وبني عامر، قتل خلالها عدد كبير من بني عامر وَبنتنِ جيفهم عرف الموضع باسم «الخايس»، يؤيد ذلك جماجم وعظام تم العثور عليها أثناء حرث هذه المزرعة عام ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م. أما «الجو ذو النخل» فيقع شمال جرعاء الجعلانية وهي المنطقة الزراعية الواقعة أقصى شمال شرقيّ قرية البطالية. وقد عُرف «الجو ذو النخل» باسم «المحرمة» ولا يزال هذا الاسم قائماً حتى العصر الحاضر.

المواقع والمعالم الأثرية ذات الصلة بمدينة الأحساء التاريخية:

يوجد عدد من المواقع والتلال الأثرية والمعالم الشاخصة التي تفيد كثيراً في تحديد موقع مدينة الأحساء ووضع تصور دقيق لما كانت عليه في المراحل المتعاقبة من

تاريخها. وقد استطاع الباحث فهد الحسين أن يقطع شوطاً بعيداً في هذا السبيل من خلال دراسته الميدانية لتلك المواقع والمعالم، وما قام به أثناء ذلك من مسح ومجسات وزيارات ميدانية ولقاءات بالثقات من أهل تلك الجهة والحصول منهم على بعض المعلومات المفيدة، بالإضافة إلى ما ورد في كتب التراث وبخاصة أشعار ابن المقرب وشروحها من إشارات تاريخية، وتوافقها مع ما أسفرت عنه نتائج المسح والتنقيب في استنطاق تاريخ بلادنا الذي لا يزال كامناً في أحشائها.

ولإبراز المزيد من ملامح صورة هذه المدينة في العصر العيوني، أُبرز بإيجاز لمعاً سريعة عن بعض المواقع الأثرية والمعالم التي تطرق إليها في دراسته:

١- عين الجوهرية:

تعتبر عين الجوهرية من أبرز معالم قرية البطالية ، وهي عين غزيرة المياه تقع إلى الغرب من القرية الحالية بالقرب من مدخلها الغربي، وهي قديمة جاء ذكرها على لسان الشاعر ابن المقرب العيوني بقوله:

ومن مـاء نـهـر الجـوهـرّيـةِ لـو صـفـا
ذبـابـةُ حِـسْيٍ لا يُـرجَّى نـبـوغُـهـا[٣٢]

ويصفها شارح ديوان ابن المقرب بأنها عين جارية وسط مدينة الأحساء[٣٣]، ونُسبت إلى الرجل الذي هندسها وكان يقال له «جوهر»، ولا تزال معروفة حتى الآن وإن تناقص ماؤها.

٢- تل قصر «قريمط»:

يقع تل قصر قريمط شرقيّ حي «الرابية» الحالي بقرية البطالية، وهو يمتد ليشمل أجزاءً كبيرةً من حي الرابية الجنوبية، كما تشغل مدرسة البطالية الابتدائية الأولى مساحة تقرب من ٢٠٠×٢٢٠ متراً من التل المذكور، ويرتفع التل عن سطح القرية في الوقت الراهن من خمسة إلى ستة أمتار.

٣- عين القحيبات:

وتعرف الآن عند أهل البطالية باسم عين «الجمة»، وقد أشار إلى هذه العين الشيخ حمد الجاسر حين زار القرية في عامي ١٣٥٨و١٣٥٩هـ أي ١٩٣٩و١٩٤٠م، وأورد رواية عن وجود آثار الحمّام الذي قُتل فيه أبو سعيد الجنابي القرمطي، وأنه لا يزال باقياً قريباً من تل قصر قريمط، وأن مجرى الماء بذلك الحمام متصل بعين القحيبات[٣٤]. وكان ذلك المجرى عبارة عن أنبوب فخاري يبلغ قطر فتحته ١١ سنتيمتراً كما يذكر الحسين، الذي نقل عن بعض أهل القرية قولهم إنه أثناء قيام البلدية بالحفر بالقرب من العين في حدود عام ١٤٠٤ إلى ١٤٠٥هـ أي ١٩٨٤ إلى ١٩٨٥ م شاهدوا أنبوباً فخارياً على عمق ٤ أمتار تقريباً، يمتد من عين «الجمة» ويتجه إلى داخل قصر قريمط ، وقد زار الباحث المذكور العين أثناء الدراسة الميدانية للقرية وذكر أنها تقع على مسافة ٢٥ متراً من الركن الجنوبي الغربي لسور مدرسة البطالية الابتدائية الأولى.

٤ - بئر الخضيرة:

وهي بئر مطوية بالحجارة كشف عنها مصادفة في حدود سنة ١٤٠٦ هـ الموافق ١٩٨٦م بمزرعة في البطالية قريبة من موقع الجريعاء، وقد عثر أثناء حفرها على مجموعة كبيرة من القطع النقدية النحاسية الصغيرة، نُقش على داخلها بخط ثلث يمين على الوجه عبارة «عز من قنع»، وعلى الظهر عبارة «ضل من طمع».

٥ - القرحاء:

تقع القرحاء إلى الشرق من قرية البطالية وتعرف الآن «بالفريق الشرقي» أحد أحياء القرية القديمة، وتنتشر في هذا الحي أهم مجموعات البيوت الطينية المتبقية في القرية، وتقع القرحاء على ربوة مرتفعة عن سطح القرية الحالي. وينقل الحسين[٣٥] عن أحد مسني القرية قوله إنه منذ أربعين سنة تقريباً، شاهد فرناً فخارياً مستدير الشكل يتوسطه فرن آخر حُشِي الفراغ بينهما بالطين الأحمر، وعثر على ذلك الفرن أثناء تنظيف أحد أنهار القرية القديمة. وقد ورد ذكر القرحاء في شعر ابن المقرب مقترناً بذكر جبل غير معروف وذلك في قوله:

سلْ عـنه يـومَ أغـارت في كـتـائـبـهـا
خـيلُ الـقـطـيفِ من الـقـرحـا إلى الجـبلِ[٣٦]

٦ - الجريعاء:

تصغير جرعاء وهي الأرض ذات الرمل، وهي مزرعة نخيل تقع شرقيّ قرية البطالية. ويروي الحسين[٣٧] عن بعض مسنّي القرية أن مزرعة الجريعاء كانت أرضاً منخفضة عن مستوى القرية الحالي وكانت تزرع أرزاً، كما اطلع على وثيقة قديمة مؤرخة بعام ١٣٠٧هـ الموافق ١٨٨٨م تحوي وصية امرأة ببيع مزرعة الأرز المسماة «بالجريعاء» الكائنة بطرف البطالية[٣٨]. وقد تحدثت شروح ديوان ابن المقرب عن موضع بالقرب من مدينة الأحساء التاريخية عرف باسم «الجريعاء» أو «أم الدجاج»، وقد جرت به موقعة شهيرة بين العيونيين وبني عامر، عرفت «بيوم الجريعاء»، حيث تذكر المصادر أن بني عامر أغاروا على مدينة الأحساء في الجريعاء فتصدى لهم أربعة من أولاد أبي مقرب الحسن بن غرير، وحالوا دون تقدمهم حتى خرجت النجدة من البلد فطردوهم، وفي ذلك يقول ابن المقرب:

مـنـا الـثلاثـةُ والـفـردُ الـذين لـقـوا
كـتـائـبـاً فـكـأن الـسـيلَ حـين طـمى
يـومَ الجـريـعـاءِ مـا خـافـوا ولا جـبـنـوا
بل كـلـهم يـصـطـلي نـيـرانـهـا قِـدَمـا[٣٩]

٧- بهيتة:

وهي منطقة رملية بالقرب من البطالية تقع عند الحافة الغربية من مزارع النخيل غربي عين الجوهرية وشرقي الشراع العيوني. وقد نقل الحسين[٤٠] عن بعض أهل قرية البطالية قولهم إنهم شاهدوا بقايا أساسات لمبانٍ قديمة، من بينها أساسات لسوق كبيرة مكونة من صفّ من الدكاكين الصغيرة المتراصة ذات جدران قصيرة مبنية من طوب لبن أحمر اللون. وقد وقف الكاتب المذكور على الموقع التقريبي للسوق بوسط

مزرعة الشيخ يوسف بن راشد المبارك. وذكر بعض من رأى أطلال السوق أنه شاهد أساسات وبقايا جدران طينية لدكاكين صغيرة مداخلها تُفتح إلى الشرق وتمتد من الشمال إلى الجنوب، كما شاهد بعض المكاييل والأوزان القديمة بعضها لا يزال موجوداً لدى بعض أهالي القرية. ويوجد إلى جانب السوق المذكور سوق لصياغة الذهب، وكان بعض الفقراء من العاملين في صياغة الذهب يقصدونه بحثاً عن برادة الذهب الناتجة عن التصنيع[٤١] ، كما يوجد هناك عدد من أفران صناعة الفخار المعروفة محلياً «بالدوقة»[٤٢]، ويضيف الحسين عن بعض المزارعين قولهم إنهم أثناء حفر مزارعهم الواقعة أقصى جنوب غرب «بهيتة» عثروا على جرار فخارية ضخمة مختومة بالطين وعندما كسروها وجدوا بها بقايا عظام آدمية متفحمة. ومما تجدر الإشارة إليه أن موضع بهيتة هذا، قد أدرجه الباحثون ضمن المواقع المرشحة للبحث عن مدينة «الجرهاء» التاريخية التي كانت درة زمانها في الفترة من١٥٠٠ ق.م إلى٥٠٠ ق.م ولم تعد آثار هذا الموضع ظاهرة للعيان الآن، حيث تم حرثه وإدخاله في عدة مزارع هناك، إذ لم يبق منه على ما يذكر الحسين[٤٣] سوى جزء صغير جداً يتمثل في بقعة رملية، مرتفعة عن مستوى المزارع المحيطة بها تشكل تلاً أثرياً ينتشر فوق سطحه كسر من الفخار والزجاج المتأخر وبقايا مخلفات بنائية.

٨- السليت:

وهي مزارع نخيل قديمة ضمن أملاك مالية الدولة تقع إلى الجنوب الغربي من قرية البطالية وذلك ضمن نطاق طرف «الشهيبي» و«الشراع الجنوبي». وفي شروح ديوان ابن المقرب لهذا الموقع إشارات تنص على أنه قريب من سور البلد (الأحساء التاريخية).

٩- المسجد الجامع:

من أهم المعالم الشاخصة بقرية البطالية المسجد الجامع، ويعرف بمسجد «الأميرة» أو المسجد «الفرد»، ويقع بالطرف الجنوبي الغربي من قرية البطالية على بعد

١٢٥ متراً تقريباً إلى الجنوب الغربي من تل قصر «قريمط»، وقد عُرف ذلك الموضع باسم «الجعلانية». ويظهر المسجد في شكل مربع غير منتظم يبلغ طول ضلعه الشرقي ٣٨,٥ متراً وضلعه الغربي ٢٣,٠٢ متراً أما ضلعاه الشمالي والجنوبي فيبلغ كل منهما ٢٣ متراً و٦٠سنتيمتراً، وتتكون واجهة الأرض من جدران قصيرة باستثناء واجهته الغربية التي يبلغ ارتفاع جزء منها ٤ أمتار، وهو على ما يعتقد ارتفاع جميع الجدران الأصلية للمسجد، وعمارته على ما يصف الحسين[٤٤] شبيهة بعمارة المساجد السلجوقية في فارس والعراق، يبدو ذلك في شكل تخطيط ظلة قبلته وشكل الدعامات والعقود الفارسية المدببة وشكل المحراب وتكوينه المعماري وعناصره الزخرفية، وحيث لا توجد به كتابات تحدد بوضوح اسم مؤسسه وزمن إنشائه ، فقد رجح الباحث المذكور أنه أنشئ في عهد الأمير «عبد الله العيوني» بين سنتي ٤٦٩هـ و٥٢٠هـ على يد ابنته هبة، ونظراً لقربه[٤٥] من دار السلطنة ودواوين الدولة وما تقضي به الضرورة من تأسيس جامع هناك منذ الأيام الأولى من قيام تلك الدولة، أرى وجاهة اقتراح تاريخ إنشائه في الفترة المذكورة. وكما عُرف بإضافته إلى مؤسسه عُرف بإضافته إلى موقعه «الجعلانية»، كما أطلق عليه اسم المسجد «الفرد» لضخامته وجمال عمارته. ومن المعلوم أن العيونيين قد أقبلوا على إعمار المساجد رجالاً ونساءً انطلاقاً من رغبتهم في إحياء الشريعة وإحياء تعاليم الإسلام وخلو البلاد من المساجد، بعد أن تمت إزالتها على أيدي القرامطة، وهوالأمر الذي شجبه ابن المقرب وقال فيه منددا بالقرامطة:

وما بنَوْا مسجداً لله نعرفهُ
بل كلُّ ما أبصروه قائماً هُدِما

وقد ذكرت المصادر أن العيونيين أسسوا داخل مدينة الأحساء وفي أرجائها المختلفة عدداً من المساجد إلى جانب جامع «الأميرة» المار ذكره:

١- مسجد الشمال: ويقع في الموضع المعروف «بالثليل» شمالي مدينة الأحساء.

٢- مسجد الجمل: وقد عرف بهذا الاسم نسبة إلى قيِّمه ومؤذنه وكان يسمى الجمل، ويقع هذا المسجد في «جرعاء المصلى» خارج السور الشمالي لمدينة

الأحساء قريباً من مصلى العيد[٤٦].

٣- مسجد مصلى العيد: ويقع ظاهر مدينة الأحساء في «جرعاء المصلى» شمالي مدينة الأحساء، وقد كان من عادة الأمير العيوني أن يخرج إليه عند صلاة العيدين في موكب مهيب بجميع زينته وخيله وينحدر إلى جميع سواد أهل الأحساء[٤٧]. وقد توارت هذه المساجد ولم يظل لها أثر في الوقت الحاضر عدا ما مر ذكره من بقايا مسجد «الأميرة».

اضمحلال مدينة الأحساء :

يرى الشيخ «حمد الجاسر» أن شأن هذه المدينة أخذ في الضعف منذ زوال حكم القرامطة واستيلاء العيونيين[٤٨]، حيث كان بعض الحكام الآخرين يستقرون في القطيف حيناً وفي جزر البحرين حيناً آخر .

والذي أراه أن أعراض الضعف لم تظهر على مدينة الأحساء بصورة واضحة إبّان الحكم العيوني أو على الأقل في بداية ذلك الحكم، وإذا كان «ياقوت» قد ذكر بأن القطيف[٤٩] هي قصبة البحرين، فهو يعني دون ريب بأنها كانت كذلك في أيام حكم المتأخرين من أمراء العيونيين، حيث انفرد بعضهم بحكم القطيف وجزيرة أوال، فقد وصف «ياقوت» ذاته الأحساء بكونها مدينة في البحرين معروفة، كما قال إنها إلى عهده مدينة مشهورة عامرة وهو المتوفى سنة ٦٢٦هـ .

ومن هنا يمكن القول إن هذه المدينة أخذت تفقد أهميتها كعاصمة منذ زوال دولة العيونيين، حين أصبح المتغلبون على حكم البلاد من الأعراب الذين يفضلون الإقامة بالقرب من مضارب عشائرهم على الإقامة داخل مدن مسوّرة .

وهذا «أبوالفداء» المتوفى سنة ٧٣٢هـ يصف مدينة الأحساء القديمة بأنها بُليدة غير مُسوّرة، وفي هذا الوصف إشارة واضحة الدلالة إلى أن هذه المدينة لم تعد على ما كانت عليه من الأهمية، فأخذت في التقلص والانكماش حتى أصبحت مجرد قرية في واحة الأحساء تعرف باسم «البطالية»، وقد سميت بهذا الاسم على حد قول الشيخ

«محمد آل عبدالقادر» نسبة إلى «مالك بن بطال بن مالك بن إبراهيم العيوني»، كما كانت تعرف قديماً باسم «البلاد» وتعتبر هذه القرية البقية الباقية من مدينة الأحساء القديمة وتقع على بعد أربعة أكيال من «المبرّز».

ب. العيون :

تقع العيون إلى الشمال[٥٠] من واحة الأحساء بحذاء الطريق الرئيسي بين الأحساء والظهران، وقد سميت «العيون» بهذا الاسم لكثرة ما بها من عيون المياه، فقد كان فيها على حد قول شارح ديوان ابن المقرب ما يربو على أربعمائة عين[٥١]، وتعد أراضي العيون من أفضل الأراضي الزراعية وأجودها إنتاجاً، فهى تشغل واحة عامرة بمزارع النخيل وحدائق الفاكهة، وقد استوطنها من قبيل «عبدالقيس» منذ قدومهم إلى هذه الجهات بطون «عامر بن الحارث بن أنمار بن عامر بن وديعة»[٥٢]، والعمور وهم «بنو الديل بن عمرو، ومحارب بن عمرو، وعجل بن عمرو، ووديعة بن لكيز» .

وإلى العيون هذه تنتسب الأسرة العيونية التي حكمت الأحساء في الفترة من سنة ٤٦٧هـ إلى سنة ٦٣٦هـ، فقد كانت مقراً لإقامتهم إلى حين تأسيس دولتهم، حيث تحولوا عنها للإقامة في داخل مدينة الأحساء .

وتضم واحة العيون مدينة تعرف باسمها، كما تعرف أيضاً باسم «المحترقة»، وقد كانت محاطة بخندق عميق لم يعد الآن موجوداً حيث اتسع العمران بالبلدة من جميع الجهات، فأصبحت لما بها من مظاهر التحضر إحدى المدن المعروفة بالمنطقة، ويتبع مدينة العيون عدة قرى عامرة .

ج. القطيف :

«القطيف» بفتح القاف وكسر الطاء المهملة بعدها مثناة تحتية ساكنة مأخوذة من القطف وهو القطع للعنب ونحوه[٥٣] .

ويطلق القطيف اسماً على منطقة «الخط» الممتدة من «صفوا» شمالاً حتى «الظهران» جنوباً ويشمل الواحة والقلعة وتوابعها، وهو من أهم مناطق التحضر في شرق الجزيرة العربية، وقد استوطنته بطون من عبدالقيس كـ«بني جذيمة،» كما كان له

في عهد الدولة العيونية أهمية خاصة حيث اتخذه بعض أمرائها مقراً لكرسي حكمه .

القلعة :

كانت المدينة الرئيسية في القطيف تعرف باسم «القلعة» لقوة تحصينها، وتقع على ساحل الخليج في واحة من أشجار النخيل وجنان الفاكهة على منتصف الشاطئ الموازي للواحة، وقد تأسست على أنقاض مدينة «الخط» التي أنشأها في هذا الموقع على ما يظهر «أردشير بن بابك» في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي. ويذكر «محمد سعيد المسلم»[٥٤] أن القلعة كانت قديماً تسمى باسم «جبرو» وكانت مخزناً للتوابل والعطور الواردة من «جزيرة تاروت»، ثم أخذت المنازل حولها في الظهور في شكل قرية مأهولة بالصيادين، ولم تزل آخذة في النمو حتى أصبحت مدينة من أهم مدن الساحل، ولعل مركز الثقل انتقل إليها إثر زوال مدينة «الزارة» من خريطة العمران سنة ٢٨٣هـ على يد «أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي».

وكانت القلعة هذه في ما مضى تتخذ شكلاً بيضاوياً وتشتمل على أربعة أحياء، وهي محاطة بسور منيع يبلغ سمكه سبعة أقدام وارتفاعه ثلاثين قدماً تقريباً[٥٥]، وللقلعة أربعة أبواب منها باب في الشرق تجاه «المرفأ» ويسمى «دروازة البحر»، وباب في الغرب يصلها بالواحة ويسمى «دروازة باب الشمال»، وباب في الجنوب عند مدخل السوق ويسمى « دروازة السوق»، وباب في الشمال يصلها بحصن صغير يقع بجانبه من ناحية الشمال .

وقد كان هذا الحصن في ما مضى مقراً لجهاز الحكم، كما كان يحيط بسور القلعة خندق عميق، فقد نقل «أبوالفداء» عن بعض أهل القطيف قولهم إن المدينة كانت محاطة بسور وخندق ولها أربعة أبواب، والبحر إذا مدّ يصل إلى سورها، وإذا جزر انكشف جزء من الأرض، وقد ظل هذا الوصف مطابقاً لحال القطيف إلى خمسين سنة خلت، وقد توارى الخندق أولاً ثم أخذ السور في التداعي إلى أن أزيل تماماً، وكان للقطيف سوق واحدة مستطيلة مسقوفة، تتألف من صفين من الحوانيت التي يبلغ

عددها زهاء ثلاثمائة حانوت، ويوجد في القلعة من الآثار التاريخية جامع قديم، وقد هُجر هذا الجامع فتداعى بنيانه ولم يبق منه بصورة سليمة سوى مئذنته العالية .

وكان يكتنف القلعة من ناحيتها الغربية والجنوبية بعض الأحياء الصغيرة، ولم تظل هذه المدينة على ما وصفناه، فقد اتسعت من جميع أطرافها فالتهمت تلك الأحياء الصغيرة والقريبة منها وجزءًا من الأرض الزراعية حولها، وجزءًا من مياه الخليج التي كانت مياهه في ما مضى تلامس أسوار القلعة .

وبالقطيف علاوة على القلعة عدة قرى وجزر من أهمها جزيرة «تاروت» وجزيرة «دارين» ذات الشهرة الفائقة في تجارة العطور .

وقد كان سكان القطيف في ما مضى يعتمدون في معيشتهم على الفلاحة والغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك، إلى جانب الاشتغال بالتجارة مع العراق وعُمان والهند والأقطار الأخرى .

وكانت القطيف قد بلغت أوج ازدهارها إبّان حكم الدولة العيونية، وقد اتخذها بعض الأمراء العيونيين مقراً لكرسي حكمه، وفي الشمال من القلعة تقع دار إمارتهم[٥٦] .

د ـ جزيرة أوال:[٥٧]

تعد هذه الجزيرة أكبر جزر «الأرخبيل»[٥٨]الواقع إزاء الشاطئ الغربي للخليج، وقد اكتسبت بهذا الموقع المتميز في مجال الملاحة والتجارة أهمية خاصة، فعرفت عبر تاريخها الحضاري الطويل بأسماء عدة، فقد كان اسمها في اللغة الأكادية «نيدوكي» وفي اللغة الآشورية «دلمون»[٥٩]، كما عرفت عند الفينيقيين باسم «تايلوس»[٦٠]، وعند الرومان «تايروس»[٦١] ، أما في ظل القبائل العربية فقد كان اسمها «أوال» نسبة إلى صنم لقبيلة «بكر بن وائل» التي استوطن هذه الجزيرة بعض أفخاذها، وقد بدأت هذه التسمية على ما يظهر قبيل الإسلام بقليل، فظلت تعرف بهذا الاسم إلى أن استأثرت مع أخواتها من الجزر حولها باسم الإقليم الذي تعتبر جزءًا منه أي «البحرين»، وقد ظل علماً عليها حتى الوقت الحاضر .

ولعل اسم البحرين كان في الأصل اسم لمدينة بهذه الجزيرة، وقد أفضت شهرتها إلى تعميم اسمها على كامل الإقليم، فقد قال «ابن خلدون» : «هجر» إقليم سُمّي باسم مدينته ويسمى البحرين باسم مدينة أخرى فيه، كما أشار «الإدريسي» إلى وجود مدينة في جزيرة أوال تحمل اسم البحرين .

وفي سبب جعل البحرين علماً على هذه الجهات عدة أقوال لعل أهمها : تدفق المياه العذبة من الينابيع الموجودة حول شواطئها تحت الماء الملح الأجاج في قاع الخليج، مما يذكرنا بقول الحق جل وعلا: (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)[٦٢] .

مكانتها الحضارية :

تميزت هذه الجزر بالإضافة إلى أهمية موقعها بوفرة المياه وخصوبة التربة[٦٣]، فشهدت الاستيطان البشري المبكر فعمرت بالزراعة والملاحة حتى صارت عاصمة تجارة اللؤلؤ على مر العصور، وفيها من المعطيات الأثرية كالمعابد والمقابر ما يشير إلى عمق جذورها الحضارية، فقد تمتعت إبان الحضارة الدلمونية (ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد) بمكانة خاصة فكان لها في عبادة أصحاب تلك الحضارة صبغة دينية متميزة .

وقد ظلت على مدى الأجيال المتعاقبة آهلة بالسكان فسكنها من عبدالقيس «بنومسمار»، ويذكر ياقوت أن بها عند ظهور الإسلام مدينة كبيرة حسنة وفيها بعض القرى كـ«الجفير» في الشمال الشرقي، وقرية «سترة» التي أشار إليها ابن المقرب في شعره، وفيها من المعالم الإسلامية الجامع ذو المنارتين [٦٤] – المنسوب تأسيسه إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز والذي قام بتجديد عمارته الأمير الفضل بن عبدالله العيوني – والقلعة .

الدور التاريخي لجزيرة أوال :

لعبت جزر البحرين في صنع تاريخ هذه المنطقة أدواراً مهمة، وأول ما نلاحظه دور أوال المتميز في التمهيد لتقويض عرش القرامطة[٦٥] وتصفية وجودهم، فقد كانت جزيرة أوال أول جزء ينفصل عن ذلك الكيان على يد «أبي البهلول بن الزجاج» وأخيه «أبي الوليد مسلم» وذلك في سنة ٤٥٠هـ.

كما حظيت في عهد الدولة العيونية بعناية خاصة من أمرائها فاتخذها بعضهم حاضرة لإدارة ملكه، وقد ظل التنافس على حكمها شديداً بين حكومات الأقطار المجاورة إلى أن دخلها الشيخ «أحمد بن محمد آل خليفة» الملقب بالفاتح، فحفظ أرومتها وحمى حياضها وأرسى حجر الأساس لبناء كيانها الحالي المتمثل في مملكة البحرين المعاصرة.

✱✱✱✱

الهوامش

(١) فهد بن علي الحسين: الآثار الاسلامية بقرية البطالية – المنطقة الشرقية، دراسة في آثارها وعلاقتها بمدينة الأحساء، الطبعة الأولى، الرياض ١٤٢٢هـ، ص ٣١ .

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ج ١، ص ١١١ .

(٣) علي بن المقرب العيوني: الديوان، تحقيق عبد الفتاح الحلو، الناشر مكتبة التعاون الثقافي، الطبعة الثانية، ص ٨٣ .

(٤) أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، ج ٥، ص ١٦٩ .

(٥) الدكتو جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ج ١، ص ١٦٩ .

(٦) المرجع السابق.

(٧) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية،المنطقة الشرقية (البحرين قديماً)، القسم الأول، منشورات دار اليمامة، الطبعة الأولى، ص ١٣٠–١٣١ .

(٨) تقي الدين بن أحمد بن علي المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٥–٢١٦ .

(٩) فهد الحسين: ص٦٦ .

(١٠) المرجع السابق: ص٦٦ .

(١١) المرجع السابق: ص٦٧ .

(١٢) المرجع السابق: ص٣٥ .

(١٣) المرجع السابق: ص١٦٣ .

(١٤) المرجع السابق: ص١٨٢ .

(١٥) المرجع السابق: ص١٨٣ .

(١٦) ناصر خسرو: سفرنامه، د.يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ص١٤٢–١٤٣ .

(١٧) المرجع السابق: ص ١٤٣ .

(١٨) المرجع السابق: ص١٤٤ .

(١٩) ابن المقرب: الديوان، مخطوط برنستون، ص٣٥ .

(٢٠) فهد الحسين: ص ١٨٤ .

(٢١) المرجع السابق: ص ١٨٥ .

(٢٢) ابن المقرب: الديوان، المخطوطة الرضوية، ص٥٠٩-٥١٠ .

(٢٣) فهد الحسين: ص ١٨٨ .

(٢٤) المرجع السابق: ص ١٨٨ .

(٢٥) المرجع السابق: ص ١٨٨ .

(٢٦) المرجع السابق: ص ١٨٨ .

(٢٧) الديوان: المخطوطة الهندية، ص ٤٥٧و٤٥٨و٤٦٦ .

(٢٨) الديوان: مخطوطة برنستون، ص٥٩٩ .

(٢٩) المصدر السابق: من ص ٥٥٥ إلى ٥٥٩ .

(*) في ديوان ابن المقرب، بتحقيق د. الحلو: الستر، انظر: ص ٦٢٩.

(٣٠) الديوان: مخطوطة برلين، ص ١٠٧ .

(**) في مخطوطة المكتبة الرضوية (باهلٍ).

(٣١) فهد الحسين: ص ١٩١ .

(٣٢) الديوان: مخطوطة المتحف البريطاني، ص١٩٣ .

(٣٣) الديوان: مخطوطة برلين، ص ١٨٦ .

(٣٤) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي، ق ١، ص ٢٣٠-٢٣١ .

(٣٥) فهد الحسين: ص ٧٦ .

(٣٦) عبدالفتاح الحلو: الديوان، ص ٣٨٣ .

(٣٧) فهد الحسين: ص ٨٢ .

(٣٨) المرجع السابق: ص ٨٢ .

(٣٩) ابن المقرب: الديوان، المخطوطة الرضوية، ص٥٠٨-٥٠٩ .

(٤٠) فهدالحسين: ص ٨٢ .

(٤١) المرجع السابق: ص ٨٢ .

(٤٢) المرجع السابق: ص ٨٣ .

(٤٣) المرجع السابق: ص ٨٣ .

(٤٤) فهد الحسين: ص ١٢٩ .

(٤٥) المرجع السابق: ص ١٥٠ .

(٤٦) ابن المقرب: الديوان، مخطوطة برلين، ص ٦٣١-٦٣٢ .

(٤٧) فهد الحسين: ص ٤٦ .

(٤٨) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ق١ ، ص١٢٩ .

(٤٩) المصدر السابق: ق١، ص ١٢٦ .

(٥٠) المصدرالسابق: ق٣ ، ص١٢٥٠ .

(٥١) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٠٤ .

(٥٢) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ق٣، ص١٢٤٩ .

(٥٣) شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الرابع، دار بيروت للطباعة والنشر، ص ٣٧٨ .

(٥٤) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ص٤٤ .

(٥٥) المصدر السابق: ص ٤٤ .

(٥٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٣٥ .

(٥٧) ياقوت: معجم البلدان، المجلد الأول، بيروت، ص ٢٧٤ .

(٥٨) محمود شاكر: شبه جزيرة العرب «البحرين»،المكتب الاسلامي، ص ١٦٣ .

(٥٩) د.جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج١، ص٥٦٠ .

(٦٠) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٩ .

(٦١) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٩ .

(٦٢) سورة فاطر: آية١٢ .

(٦٣) ياقوت: المرجع السابق.

(٦٤) مجلة الوثيقة: عدد ٣٥، رمضان سنة ١٤١٩هـ، يناير ١٩٩٩م، السنة الثامنة عشرة.

(٦٥) مخطوطة ديوان الشاعر علي بن المقرب: ص ٤٩١ إلى ص ٤٩٣ .

الفصل الثالث
الأحوال الاقتصادية

أ ـ الزراعة :

كانت الزراعة في هذه البلاد من أقدم ألوان النشاط الاقتصادي وأهمها[١]، فقد عمل فيها القطاع الأعظم من السكان، ساعدهم على ذلك ما تتميز به أرضهم من وفرة المياه وخصوبة التربة وملاءمتها لزراعة كثير من المحاصيل والثمار، وقد كانت هذه البلاد على مر الأجيال سلة الغذاء لا لأهلها وحدهم، بل لسكان معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وتتركز الزراعة في الواحات والجزر وبخاصة واحتا الأحساء[٢]والقطيف[٣] وجزيرة أوال، وتعتمد في ريها على آبار المياه الجوفية، ويستخدم المزارعون في الري نظاما زمنياً يحدد بدقة نصيب كل مزرعة[٤] وفق ما تنص عليه أوراق ملكيتها، ولهم في ذلك أساليب ومصطلحات معلومة، كما مارسوا منذ أمد بعيد زراعة أصناف عدة تشمل الحبوب والفاكهة والخضراوات، إلى جانب التمور التي سار بذكرها المثل السائر في الجودة والتنوع، وقد احتلت زراعة النخيل في هذه الأراضي مركز الصدارة في النشاط الاقتصادي لما ينطوي عليه هذا النوع من المميزات المتعددة التي تكمن في كل جزء من أجزائها .

وتبلغ أنواع التمور المعروفة بضعة وسبعين نوعاً[٥]، من أشهرها «الخُلاص» وكان قديماً يعرف بالبرني والرزيز و«بالتعضود»[٦] والأشهل والطيار والمجناز والصرفان والخنيزي والشيشي والهلالي والتناجيب وغيرها .

ويبدأ موسم إرطاب النخيل منذ أواخر شهر يونيو[٧]، للأصناف: الطيار، والكاسبي، والمجناز، والغرا، ثم يتتابع إرطاب الأصناف الأخرى ويستمر حتى شهر «ديسمبر» كانون الأول، ومن الأصناف التي يتأخر إرطابها: الأشهل، وأم رحيم، والتناجيب، والبرني،

والهلالي، حيث يبدأ إرطابها منذ منتصف شهر أغسطس.

أما واحة القطيف وجزيرة أوال فإن من أشهر أنواع التمور[٨] فيهما: الماجي، والبكيرة، والغرا، والخنيزي، والخلاص، والهلالي، وغيرها، ومن التمور ما يقتصر استعماله على الاستهلاك المحلي ومنها ما يصدر إلى خارج البلاد .

وعلاوة على التمور تنتج هذه البلاد محاصيل أخرى منها: الأرز، والحنطة، والشعير، والبصل، والثوم، والسمسم، والقطن، كما تنتج من الفواكه: الرمان، والعنب، والتين، والخوخ، والتفاح، والتوت، والمشمش، واللوز، والبوبي، والبطيخ، والشمام، وفيها من الحمضيات الليمون، والإترنج، وكذلك أنواع الخضراوات والبقول، وإلى جانب ذلك يزرع البرسيم والدخن لعلف الماشية .

وكانت زراعة الأرز قاصرة على واحة الأحساء، وقد عرفت منذ زمن بعيد وفقاً لما ورد من إشارات في الوثائق السومرية .

الملكية الزراعية :

تعود ملكية معظم الأراضي الزراعية في واحتي الأحساء والقطيف وجزيرة أوال لملاك محليين من سكان المدن والقرى وبعض رجال البادية .

وقد درجت الحكومات المتعاقبة على مر العصور في هذه البلاد على امتلاك عدد من حقول النخيل ومزارع الأرز . وقد أشارت المعاهدة المبرمة بين الأمير «الفضل بن محمد» وبين حاكم جزيرة قيس إلى امتلاك الدولة في العهد العيوني لبعض الحقول مثل: بستان المشعري، وبستان القصر، وبستان المصفاة .

ويتيح العمل في القطاع الزراعي فرصاً كثيرة ومتنوعة لعدد كبير من السكان ومن هذه الفرص ما هو ثابت ومستمر طيلة أيام العام، ومنها ما له ارتباط بمواسم زراعية معينة: كموسم تجذيب النخيل، وموسم تأبيرها، وموسم صرام ثمارها، وموسم بذر الحبوب والأرز وحصادها. ولأن بعض هذه الأعمال تتطلب مهارة خاصة وجهداً

أكثر فقد تخصصت فئات من العمال الزراعيين في تلك الأعمال، وكانت أجورها أعلى من أجور الفئات الأخرى من العاملين في الزراعة .

أما العمال الثابتون بصورة دائمة في خدمة البساتين والمزارع فهم يعرفون بالشركاء واحده شريك، ويتم التعاون معهم وفق نظامين مختلفين: يتمثل النظام الأول في قيام الشريك بجميع الأعمال التي تتطلبها المزرعة على الدوام والاستمرار، كسقي المزرعة وحراثة أرضها، وله مقابل ذلك عُشر المحصول[٩]، والنظام الثاني هو التقبيل «التضمين» ويتمثل في قيام الشريك بجميع الأعمال التي تتطلبها عمارة المزرعة وتغطية نفقاتها وذلك مقابل عيني معلوم يأخذه المتقبل من محصول المزرعة .

المنتجات الحيوانية :

كما مدت خصوبة التربة ووفرة المياه بهذه البلاد السكان بالمحاصيل الزراعية المختلفة، فقد ساعدتهم على إنتاج وتربية المواشي والدواجن والطيور، وتذكر المصادر أن في الأحساء أحسن الخيل وأحسن الحُمر البيض، وأحسن البقر، وفيها الإبل والغنم، وفيها الحيوانات الوحشية كالغزلان .

وكانت تربية الإبل والخيول والجزء الأكبر من قطعان الأغنام تتم في البادية حيث توجد المراعي الخصبة في وادي المياه في الشمال، ورياض «الصمان» في الغرب، والواحات بناحية الجنوب[١٠] .

وقد اهتم الأمراء العيونيون بالزراعة وتنمية الثروة الحيوانية فكان من أشهرهم عناية بالخيل «الحسن بن عبدالله العيوني»، وأبو شبيب جعفر بن الفضل العيوني»[١١] كما كان لهم عناية فائقة بتربية الإبل . ومن المؤشرات الدالة على ذلك قيام الأمير «الفضل بن عبدالله العيوني» بحماية قطاع واسع من المراعي لإبله وإبل المستضعفين من أبناء شعبه في الأراضي الممتدة من «ثاج» إلى «قطر»، وكان يقوم بنفسه بالإشراف على هذا الحمى وتفقد أحواله، كما بلغت عناية أمراء هذه الدولة بحماية الحياة الفطرية والحيوانية وتنميتها حداً يربو على التصور، فها هو الأمير «أبومقدم شكر العيوني» يصدر أوامره في سني الجدب والقحط بحظر الصيد والقنص، ويأمر بأن ينثر للفواخت

والطيور في مواطن وقوعها من الطعام ما يناسب كل جنس منها، يقول ابن المقرب في ذلك :

ومُـطـعِمُ الـطـيـرِ عـامَ المحلِ فـاسمُ بهِ
مـنـا إذا صَرَّ خِـلْفُ الـغـيثِ فـانـصـرمـا[١٢]

ب. الصيد البحري :

كان صيد الأسماك أقدم ما عرفه إنسان هذه الأراضي من ألوان النشاط في التماس قوته، فقد كشفت البحوث الأثرية عن العديد من الوسائل التي استعملها السكان في صيد الأسماك والربيان والانتفاع بها، فقد صار صيدها حرفة يشتغل بها قطاع كبير من المجتمع، وما زالت خبرتهم في صيده تنمو مع الأيام حتى عرفوا أنواع الأسماك وخصائص كل صنف منها ومكان وجوده، وأنسب الأوقات والوسائل لصيده، ولعل دفء مياه الخليج وضحالته خاصة من ناحية سواحله الغربية من أهم العوامل التي ساعدت سكان تلك السواحل على معرفة الصيد والاشتغال به منذ زمن مبكر[١٣] .

كما أن تفاوت أعماق الخليج وتنوع نباتاته وارتفاع نسبة الملوحة في مياهه قد ساعدت على إثرائه بالعديد من أصناف الأسماك الجيدة[١٤].

ومن أشهر أنواع الأسماك: «الكنعد، والسكن، والهامور، والجباب، والشعري، والعندق، والسبيطي»، وقد استعمل الصيادون في اقتناص فرائسهم من الأسماك والربيان عدة وسائل من أهمها :

١ – الحضرة : وهي أقفاص تتخذ من الحبال بحيث تحجز داخلها جميع ما تحمله إليها مياه البحر من السمك في حالة المد، وكما تستعمل الحجارة أيضاً في إقامة تلك الحظائر وتعرف باسم «المساكر» وقد كانت معروفة بهذا الاسم منذ القدم، وقد جاء ذكرها بهذا الاسم في المعاهدة المبرمة بين الأمير «الفضل بن محمد» وبين حاكم جزيرة قيس .

٢ – الشباك .

٣ – القراقير : وهي عبارة عن أقفاص كبيرة تتسع لمقدار كبير من الأسماك، وتستخدم للصيد في المياه العميقة .

وإلى جانب هذه الوسائل يوجد نوع خاص بالصيادين الهواة ويعرف باسم «الشص» أو «المداد»، وهو خيط طويل ينتهي أحد طرفيه بسنارة .

ونظراً لبعد بعض مراكز تسويق الربيان عن مصادر صيده فقد لجأ الصيادون إلى وسيلة تضمن استمرار صلاحيته أطول فترة ممكنة، فكانوا يقومون عند استخراجه بتجفيفه بالطرق الخاصة، أما السمك فيباع طرياً باستثناء أنواع قليلة تباع مجففة، والرديء من هذه الأنواع تعلف به الأبقار، وقد أشار ابن المقرب في شعره إلى العديد من أنواع الأسماك في هذه البلاد .

ج. الغوص على اللؤلؤ :

عرف الإنسان اللؤلؤ منذ أزمنة موغلة في القدم فدأب على استخراجه والاستفادة منه في الزينة وصناعة الأدوية وبعض الصناعات، وهو حجر كريم يتكون داخل حيوان بحري هلامي يعرف «بالمحار».

وتتخذ اللآلئ أشكالاً وألواناً مختلفة[١٥]، وتتفاوت اللآلئ من حيث النوع والشكل والحجم والجودة واللون، وأجود أصنافه الكبير الرزين البراق المتميز بالاستدارة التامة مع رطوبة الملمس وأشهر أنواعه: الجيون، والشيرين، والجلوار، والجسط، والبدلة، والجوهر الكبير يسمى «رأساً» وأشهر أنواعه الحصبان، ويسمى المتوسط «بطناً» أما الصغير منه فيسمى «قماش»، أما الناعم فيعرف باسم «سحتيت».

ويعد الخليج العربي أفضل مواطن اللؤلؤ سواء في الجودة أو في غزارة الإنتاج، وتوجد المغاصات في الخليج على امتداد السواحل العربية وفي محاذاتها، لذا قال «المقدسي» المغاصات في سواحل هجر، وقد قدر عددها بنحو ثلاثمائة مغاص[١٦]، وتعرف هذه المغاصات باسم «هيرات» مفردها «هير» وأصله فارسي وهو محل اللؤلؤ والأحجار الكريمة ومنجم الذهب[١٧]، ولكل مغاص اسم ومواصفات معروفة لدى البحارة، وقد كان الغوص على اللؤلؤ واستخراجه وصناعته والاتجار فيه من أهم

الموارد المالية لسكان هذه البلاد منذ زمن بعيد، إذ تذكر بعض اللوحات السومرية والأكادية أن سفن «أور»[١٨] كانت تجلب من دلمون اللؤلؤ وتسميه «عين السمك» وذلك منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد تحدث الشعر منذ العصر الجاهلي عن اللؤلؤ والغوص عليه، فهذا «المخبَّل السعدي» أحد شعراء هذه البلاد المخضرمين يزودنا بإحدى صور الغوص في مياه الخليج فيقول مشبهاً دموعه عند ذكرى حبيبته باللآلئ التي انحل نظمها فتساقطت، وأن وجه تلك الحبيبة يشبه اللؤلؤة النادرة الغالية التي ازدان بها عرش العجم، وقد جاء بها من أعماق الخليج غواص نحيل ماهر يشبه السهم في الاندفاع والسرعة أثناء عمله، جريء لا يبالي بأشد الأسماك شراسة وخطراً على الغاصة فيقول :

ذَكَــرَ الــربــابَ وذكــرُهــا سَــقْمُ
فــصَــبــا ولــيس لمن صَــبــا حِــلْمُ
وإذا ألمَّ خــيــالُــهــا طُــرِفتْ
عــيــنــي فــمــاءُ شــجــونــهــا سَــجْم
كــالــلــؤلــؤ المــســجــورِ أُغْــفِلَ في
ســلك الــنــظــامِ فــخــانــه الــنَّــظْم
.....
وتُــريكَ وجــهــاً كــالــصــحــيــفــة لا
ظــمــآنُ مُــخــتــلِجٌ ولا جَــهْــم
كــعــقــيــلــة الــدُّرِّ اســتــضــاءَ بــهــا
مــحــرابُ عــرشٍ عــزّهــا الــعُــجْم
أغــلــى بــهــا ثــمــنــاً وجــاء بــهــا
شَــخْتُ الــعــظــامِ كــأنه ســهــم
بــلــبــانهِ زيتٌ وأخــرجــهــا
مــن ذي غــوارِبَ وَسْــطُه الــلَّــخْم[١٩]

موسم الغوص وصفته :

يقتطع موسم الغوص الرئيسي من السنة أربعة أشهر وعشرة أيام وهي الفترة من مايو (أيار) إلى سبتمبر (أيلول)، وهناك فترتان إحداهما في شهر أبريل وتسمى «خنيجة» والأخرى في أكتوبر وتسمى «الردة».

وقبل حلول أوان الغوص الرئيسي في كل عام يتم التحضير والاستعداد له قبل أيام، فيعمل أصحاب السفن على جمع أتباعهم من الغواصين والمستخدمين، ومن أشهر أصحاب السفن العاملة في الخليج في العصر الجاهلي رجل سمته المصادر «بنيامين»[٢٠] وهو يهودي، ذكره كل من امرئ القيس وطرفة بن العبد في شعرهما .

وفي اليوم المخصص للخروج إلى الغوص يخرج الغاصة في حشد من الأقارب والأهل ويتجمعون في مراكز الإقلاع «كالعقير ودارين وجزيرة أوال»، وفي خضم مشاعر فياضة بحرارة الوداع تقلع السفن بالرجال .

وتعد جزيرة أوال «البحرين» المركز الرئيسي للانطلاق نحو مغاصات اللؤلؤ، حيث يقيم بها ويلتقي فيها كبار الغاصة وأرباب السفن والتجار، ومن هناك تتخذ جميع الترتيبات لعملية الغوص، ومن أشهر أنواع السفن العاملة في الغوص قديماً نوع يقال له «دنج»[٢١] وهو من أكبر الزوارق، ويقسم إلى خمسة أو ستة أقسام، يخص كل قسم منها تاجراً معيناً. وقد قدر الإدريسي عدد السفن المهيأة للغوص في البحرين أثناء زيارته لها بمائتي سفينة تقريباً .

العاملون في الغوص :

١ – «ربان السفينة» : ويعرف باسم «نوخذا» أو «ناخوذا» وجمعه «نواخذة».

٢ – «الجعدي»: وهو من ينوب عن «الناخوذا» في حالة غيابه ومساعدته .

٣ – «المقدمي»: وهو رئيس البحارة والمسؤول عن العمل في السفينة والمشرف على شؤونها.

٤ – «الغيص»: وهو الذي يقوم بالنزول في البحر لالتقاط المحار .

٥ – «السيب»: وهو الشخص الذي يقوم بجذب الغيص من الماء، وكان قديماً

يسمى «المصفي».

٦ – «الرديف»: وهو الصبي الذي يقوم بالتدرب على العمل في السفينة ويقوم ببعض الأعمال الخفيفة .

٧ – «النّهام»: وهو الذي يرفه عن البحارة بالغناء لهم .

٨ – «العزّال»: وهو الشخص الذي يقوم بالغوص لحسابه الخاص .

٩ – «التبّاب»: وهو الذي يقوم بخدمة البحارة ويتدرب على العمل في البحر، وليس له سهم ويحصل على مكافأة من النواخذة والبحارة .

الانطلاق إلى الغوص :

تبدأ عملية الغوص بانطلاق السفن يتقدمها دليل لديه خبرة بأماكن الغوص، وحين يصل إلى أحد المغاصات المعروفة يشير على الجميع بالتوقف والتحضير للعمل حيث يباشر كل من الغاصة عمله، ويستمر العمل في الغوص طيلة ساعات النهار، ويستخدم الغيص بعض الأدوات الخاصة بعملية الغوص، والمدة التي يمضيها الغيص في عمله تحت الماء تتفاوت من واحد إلى آخر، وهي في العادة تتراوح بين دقيقة ونصف الدقيقة .

وحين يُستحصل اللؤلؤ من المحار يُجمع في قماش خاص ويحفظ لدى ربان السفينة، حيث يتولى بدوره بيعه لأحد التجار المعروفين .

ويحدثنا صاحب كتاب «نزهة المشتاق» أن تجار اللؤلؤ في أيامه كانوا يرافقون الغواصين في رحلة الغوص ويقيمون في السفن معهم، حيث يقوم المصفي «السيب» فور فراغ الغواص من عمله بفتح المحار، عندئذٍ يتسلم التاجر منه اللؤلؤ ويصره في منديل يدون عليه اسم صاحبه ويطبعه بخاتم خاص ثم يحفظه معه .

وبعد انقضاء موسم الغوص ينصرف الجميع إلى جزيرة أوال، وبعد نزولهم فيها

يسلم التجار ما في حوزتهم من اللؤلؤ إلى والي الجزيرة، فيظل في قبضة الوالي وفي ذمته، فإذا كان يوم البيع اجتمع التجار في الموضع المعد للبيع، وأحضرت الصرر ونودي على أصحابها ثم تصنف أنواعها بوساطة غرابيل خاصة، ثم تعرض للبيع وينادى عليها حتى تستقر على سعر معين، فإذا أحب التاجر شراء سلعته سُجّلت في حسابه، وفور بيع اللؤلؤ تتم تصفية حسابات الرحلة فتحسم أولاً الرسوم والإتاوات المقررة للسلطات الحاكمة من الغوص، وكانت هذه الرسوم من نحو ألف عام توازي خمس محصول الغوص، وقد يقتطع السلطان قيمة نصف المحصول إذا كان من أهل الجور، كما هو الحال عند السيّئ من الأمراء العيونيين[٢٢] .

ومن هنا نتبين أن الغوص على اللؤلؤ كان يمثل للاقتصاد شرياناً حيوياً ومصدر دخل مجزٍ لقطاع كبير من السكان من المشتغلين باستخراجه وتصنيعه والاتجار فيه .

د ـ التجارة :

١ - عرف سكان هذه البلاد التجارة ومارسوها منذ زمن بعيد، وقد ساعدهم على ممارستها والاشتغال بها عدة عوامل[٢٣] منها : وجود الكثافة السكانية بها، وحاجتهم المتزايدة إلى ما يؤمن حياتهم المعيشية من مواد غذائية وسلع ضرورية وكمالية.

٢ - وجود وفرة من المنتجات الزراعية والصناعية والرغبة في تصدير ما يزيد منها على الحاجة إلى الأسواق الأخرى .

٣ - موقع بلدهم في ملتقى طرق التجارة البرية والبحرية بين مراكز الحضارات، فقد أدرك أهل هذه البلاد أهمية الخليج الذي تشغل بلادهم معظم شواطئه الغربية وجزره، وتطلعوا من خلاله إلى الاتصال بغيرهم من الشعوب، وهوّن عليهم ركوبه ضحالة مياهه وتدرجها نحو العمق فاهتدوا إلى صناعة السفن، وكانت في بدايتها تصنع من القصب وجريد النخل فركبوها وتنقلوا بها بين سواحل الخليج يقيمون مع سكانها أوثق الصلات التجارية عن طريق تبادل البضائع والسلع، وبمرور الأيام تعاظمت خبرتهم في هذا المجال

فصنعوا السفن من الخشب واخترعوا لها الشراع ومخروا بها عباب البحار والمحيطات، وسبروا أغوارها وعرفوا مسالكها، واستوعبوا أسرار الرياح الموسمية التي تهب على الهند في فصل الصيف ثم تعود في فصل الشتاء من اتجاه معاكس، فاتسعت بذلك دائرة نشاطهم التجاري حتى شملت أهم مراكز الحضارات القديمة المعروفة في العراق وفارس والهند ووادي الإندوس واليمن ومصر وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، فاتصلوا بشعوبها ومارسوا التجارة معها في مختلف السلع التجارية والكماليات كالذهب والفضة واللؤلؤ والحديد والنحاس والأخشاب .

وقد أشارت المصادر إلى ممارسة «الدلمونيين»[٢٤] لهذا اللون من النشاط التجاري وذلك منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وكان من أهم مراكز التجارة مدينة الأحساء وميناء العقير وميناء دارين وجزيرة أوال، فقد كان التجار آنذاك يدفعون العُشر ضريبة عن تجارتهم لمعابد «أور». وهناك عدة نصوص أثرية تَبّينَ من دراستها أنها عقود واتفاقيات تجارية أبرمت بين تجار «أور» وتجار «دلمون»، وكانت بين السلع التي تصدرها دلمون إلى العراق الفضة والذهب واللؤلؤ والتمور وبعض الحيوانات والأخشاب والنحاس حيث كان يتدفق على دلمون من عُمان[٢٥] .

ويعد وادي الإندوس من أهم المناطق التي ارتبطت مع دلمون بصلات تجارية منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، يؤيد ذلك التشابه في عدد من الآثار في المنطقتين، ومن تلك الآثار فخار «بارباري» الذي يعود للحضارة المبكرة لوادي الإندوس، وقد عثر عليه المنقبون في مقابر جزيرة أوال ويرجع تاريخه للفترات: ثلاثة آلاف، وألف وسبعمائة قبل الميلاد، ويذهب بعض الباحثين إلى القول إن الأسطول التجاري لدلمون اجتاز البحر إلى مصر، وتبادل التجارة معها، مستشهدين بما تم اكتشافه من الجعارين المصرية في مقابر البحرين، ويعود تاريخ تلك الجعارين[*] إلى عهد «تحتمس الثالث» سنة ١٥٠٠ق.م.

(*) الجعارين: مفردها جعران، وهي عند قدماء المصريين تمثال لحشرة سوداء من نوع الخنافس، عرفوها وقدسوها، ثم جعلوا منها تميمة وحلية. (المعجم الوسيط، الجزء الأول، ص ١٢٥) (المراجع).

كما نجح الدلمونيون في الوصول إلى هذه الأقطار عن طريق البر في مهام تجارية أيضاً، كما وصلوا إلى عُمان وجنوبي الجزيرة العربية، وتبادلوا التجارة معها، وقد ظلت دلمون تمثل أحد المراكز التجارية المهمة طيلة ألفين وخمسمائة سنة قبل الميلاد، حيث أفل نجمها بعد أن نزح سكانها من الفينيقيين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط .

فقامت في أعقابها الحضارة الجرهائية التي اعتمد أهلها التجارة أساساً لبناء قوتهم، فأشادوا المدن التي تعد من أهم المراكز التجارية، منها مدينة هجر وكانت تعرف باسم الجرهاء في واحة الأحساء وكذلك العقير وبلبانة في القطيف، وثاج والحناءة وجزيرة أوال .

وقد ذكرت المصادر أن الهجريين من أكثر الناس نشاطاً في مجال التجارة، فقد كانوا منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد من كبار الممارسين للاستيراد والتصدير، وأكثر السلع رواجاً في أيامهم التوابل والعقاقير الطبية والتمور والبخور والأحجار الكريمة إلى غير ذلك من السلع، وقد اجتمعت لهم بسبب ذلك ثروة طائلة .

ويذكر «استرابون» نقلاً عن «أرسطو طاليس» أن الجرهائيين كانوا يصدرون بضائعهم على السفن إلى بابل، ومنها إلى أعالي الفرات ومن ثم يحملونها بالبر إلى مختلف الأقطار[٢٦]، كما ذكرت المصادر أن قوافل الجرهائيين البرية كانت تتردد على غزة بفلسطين، وهناك يبيعون ما لديهم من السلع ويشترون ما يريدون من سواحل البحر الأبيض المتوسط، وبعد عودتهم يبيعونها في الأسواق المحلية أو يرسلونها إلى أسواق أخرى في جزيرة العرب والبلدان الأخرى، وقد بلغت الجرهاء في الفترة من ٣٢٣ ق.م إلى ٢١٥ ق.م قمة نشاطها الاقتصادي كأهم إمارة كانزة للذهب والفضة والأحجار الكريمة .

التجارة بعد ظهور الإسلام :

تشير المصادر إلى أن التجارة في هذه البلاد ظلت مزدهرة حتى بعد ظهور الإسلام وكانت من أعمدة الاقتصاد القوي آنذاك .

ويمكن معرفة قوة هذا الاقتصاد من معرفة حجم خراجها إلى خزانة الدولة الإسلامية في عهد النبي [٢٧] ، جاء في المصادر أن «العلاء بن الحضرمي» بعث إلى رسول الله مالاً من البحرين قدره ثمانون ألفاً ما أتاه أكثر منه قبله ولا بعده .

وفي عهد عمر بن الخطاب بلغ خراج هذه البلاد في إحدى السنوات خمسمائة ألف دينار حملها أبو هريرة من هجر إلى المدينة المنورة[٢٨]، كما كان تجار هذه البلاد يترددون بمتاجرهم على مدن الحجاز بعدة سلع من أهمها المسك والتمور والمنسوجات[٢٩] .

وقد ذكرت المصادر أن النبي والخلفاء وأم المؤمنين عائشة لبسوا من منسوجات هذه البلاد من القمص والملاحف والسراويل، كما تاجروا مع اليمامة في بعض السلع الغذائية وغيرها، هذا بالإضافة إلى استمرار تجارتهم التقليدية مع الهند وفارس والعراق .

وقد ذكرت المصادر أن التبادل التجاري بين البحرين والعراق كان قائماً في أيام الدولة العيونية، فكان في جملة البضائع التي تصدرها البحرين إلى العراق: اللؤلؤ، والخيل، والتمور، فقد جاء في شرح ديوان ابن المقرب[٣٠] أن جماعة من تجار العراق كانوا قاصدين البحرين فغرقت سفينتهم بإزاء جزيرة أوال وكانت محملة بمختلف البضائع والسلع إبان حكم «الفضل بن عبدالله العيوني»، فأرسل على الفور لإنجادهم جماعة من الغاصة المتخصصين فأنقذوهم، كما استخرجوا ما قدروا عليه من بضائعهم وقام بتعويض التجار عما فقدوه من البضائع .

وكان الشاعر علي بن المقرب قد مارس التجارة بين العراق والبحرين حيث كان يتاجر في الحديد، وقد ذكر شارح الديوان أن ابن المقرب[٣١] جلب الحديد من العراق عن طريق «واسط» ففرض عليه عاملها «الدُبيسي» ضريبة باهظة بلغت نصف قيمة ذلك الحديد فهجاه ابن المقرب هجاءً مراً، كما ذكر شارح الديوان أيضاً أن ابن المقرب قام

باختيار رجل من أهل البصرة وكيلاً لجماعة من تجار الأحساء ولم يكن جديراً بثقته حيث غدر بموكليه فهجاه الشاعر[٣٢] .

وكانت الهند من أهم الأقطار التي حظيت بعلاقات تجارية مع هذه البلاد[٣٣]، فكانت تصدر إلى الهند من منتوجاتها: اللؤلؤ، والتمور، والخيل، كما جلبت منها خشب الساج، والأثاث، والأواني النحاسية، والنارجيل، والعود[٣٤]، والزمرد، والحديد الخام، والتوابل والعطور، والهيل «الحبهان»، وبعض الحاصلات الزراعية وقد زرعوها في بلادهم كشجر اللارنج، والإترنج، ومنها نقلت إلى العراق والشام .

وفي إفريقيا كانت بلاد الصومال من أسبق الجهات التي استأثرت بكثير من الرحلات الخليجية وما اقترن بها من ظهور مراكز تجارة هامة، تذكر المصادر أن أول من أسس مدينة مقديشيو وقام بتعميرها ستة إخوة أحسائيين[٣٥]، اعتادوا ممارسة التجارة مع تلك الجهات وذلك في القرن الرابع الهجري، وكانت أهم ما تستورده البحرين من تلك الجهات جلود النمور الحمر، والذهب، والعاج، والعنبر، والحديد، والرقيق .

ولم يكن اتصال البحرين وسائر أقطار الخليج بإفريقيا قاصراً على الرحلات البحرية فحسب، فقد ذكرت المصادر أن تجار البحرين كانوا يصلون إلى مصر عن طريق البر في قوافل كبيرة، جاء عن القلقشندي قوله : إن أهل البحرين من بني عقيل كانوا يصلون إلى باب السلطان بمصر فكانوا يحملون إلى مصر جياد الخيل، وكرام المهارى، واللؤلؤ، وأمتعة العراق والهند ويعودون من هناك إلى بلادهم محملين بالسكر والأقمشة .

التجارة المحلية :

كانت في هذه البلاد عدة أسواق تجارية هامة، فكان منها: ما هو ثابت على الدوام والاستمرار، ومنها ما كان يقام في زمن معلوم في يوم من الأسبوع أو في شهر معين من العام وذلك منذ زمن بعيد .

وقد ذكرت المصادر منها عدة أسواق: كسوق هجر[٣٦] وكانت تقام في شهر ربيع الآخر من كل عام، وكان يُعشّر التجار فيها إبان ظهور الإسلام «المنذر بن ساوى»،

وسوق المشقّر وكانت تقام سنوياً طيلة شهر جمادى الآخرة، وسوق الأحساء وكانت تعقد على الكثيب المعروف باسم الجرعاء[٣٧]، وسوق دارين وكان يعمل طيلة أيام العام.

هـ. الصناعة:

كانت هذه البلاد من أهم المراكز الصناعية في جزيرة العرب، وقد نشأت فيها صناعات متنوعة منذ العصور الموغلة في القدم مما يشير إلى عراقة الحضارة فيها .

وقد أشار إلى ذلك «ابن خلدون» منوهاً بقدم الصناعة في هذه البلاد ورسوخها وتجددها[٣٨]، وتعتبر الأدوات وشذرات الفخار المنتشرة في المواقع الأثرية فيها بما تمتلكه من خصائص متميزة في تصميمها وتشكيلها وزخرفتها مؤشراً واضحاً على تقدم الصناعة وعراقتها، ويرجع ذلك لما تحفل به أرضها من مقومات هذا النوع من النشاط الاقتصادي المتمثلة في المواد الأولية مثل: الطين الأخضر المناسب لصناعة الفخار، والقطن، والصوف، والأخشاب، وشجرة النخل التي كان كل جزء منها مادة أساسية لنوع أو أكثر من المصنوعات، وفيها الطاقة البشرية المنتجة والمنبثقة من مجتمعها المتحضر والتي تنحدر بعض عناصره من شعوب لا تزدري الصناعة ولا تستنكف من ممارستها، وفيها أسواق رائجة ونشاط تجاري تعتمد عليه مناطق كثيرة في الحصول على ما يلزمها من السلع والمنتجات الصناعية المختلفة. ومن هنا قامت في هذه البلاد حركة صناعية نشيطة وفرت لسكانها وسكان المناطق الأخرى معظم ما تحتاج إليه من المنتجات الصناعية: كالملابس، والأثاث ولوازم الصناعة، والصيد، والحرث، وصناعة المجوهرات والحلي وأدوات الزينة.

وقد شملت الحركة الصناعية جميع المدن وبعض قرى هذه البلاد، فأسهم كل موضع في إنتاج الصناعات التي تلائم ظروفه من حيث الموقع وتوافر الخامات اللازمة لتلك الصناعات .

أنواع المصنوعات:

صناعة السفن:[٣٩]

وتعد من أهم الحرف التي مارسها السكان منذ أقدم العصور، وقد أصبحت لهم فيها خبرة مكنتهم من تصميم كل سفينة طبقاً للمواصفات التي تلائم ظروف استخدامها والغرض الذي صنعت من أجله، فهناك السفن التجارية كالبوم، وسفن الغوص كالسنبوك والشوعي، وقوارب الصيد، وتعد جزيرتا أوال ودارين من أهم المراكز التي تبنى فيها تلك السفن .

صناعة الأسلحة :

اشتهرت هذه البلاد بصناعة عدة أنواع من المعدات الحربية منها صناعة السيوف والرماح، وكانت مدينة الخط من أهم مراكز إنتاج الرماح فقد بلغت شهرة الرماح الخطية حداً صار معها اسم الخط علماً على الرمح ذاته .

وأول من ثقف الرماح بالخط «هزيز بن شن بن أفصى» من عبدالقيس[٤٠]، وقد استمدّ الرمح السمهري والرديني اسميهما من اسمي صانعيهما وكلاهما من أهل الخط، وهناك رمح قصير يسمى الخرصان[٤١] تخصصت في إنتاجه قرية بهجر تحمل هذا الاسم، وأشارت المصادر إلى أنواع أخرى من الأدوات الحربية منها الدروع الحطمية المنسوبة إلى «حطمة بن الحارث بن عمرو بن وديعة» من عبدالقيس.

صناعة الأثاث والأواني والأدوات :

تكفلت الحركة الصناعية بتأمين جميع ما يحتاج إليه المجتمع من لوازم الحياة اليومية: كالمواد الإنشائية، والأثاث المنزلي، وأواني الطهي[٤٢]، والمعدات اللازمة للزراعة والصناعة والصيد والقنص .

وقد اعتمدت هذه الحركة على قاعدة عريضة من الحرفيين المهرة الذين تنوعت اختصاصاتهم، فتخصصت كل فئة منهم في إنتاج نوع معين من هذه الصناعات ظل

متوارثاً فيها جيلاً بعد آخر، وقد حرص كل من هذه الفئات على استغلال الخامات المحلية المتاحة كلما أمكن ذلك .

المنسوجات :

أشارت المصادر إلى أنواع متعددة من المنسوجات عُرف كل منها باسم البلد[٤٣] الذي يتم فيه نسجها: من الثوب الهجري نسبة إلى هجر، والظهراني المنسوب إلى الظهران، والقطري المنسوب إلى قطر، وكذلك معقدة البحرين .

وقد اشتهرت هذه المدن بإنتاج هذه المصنوعات حتى أصبح اسم المدينة علماً على المنسوج ذاته، وكانت تُسَوّق على مستوى الجزيرة العربية مما يشير إلى كثرة المصانع وغزارة إنتاجها، ولعل دارين كانت إحدى أماكن تلك المصانع، فهذا جرير يهجو البعيث فيقول :

وتُؤخَذ من عند البعيث ضريبةٌ
ويترك نسّاجاً بدارين مسلما

وقد سبقت الإشارة إلى أن الرسول والخلفاء لبسوا من منسوجاتها[٤٤]، ومما يدل على استمرارها حتى العصر العباسي أن المأمون قد خلع على أبي العتاهية أردية قطرية .

وصفوة القول : إن تنوع مصادر الدخل في هذه البلاد ووعي أهلها وسبقهم في ميدان الملاحة والاتصال بمختلف الشعوب والتبادل التجاري معها، أفضى إلى قيام مجتمع حضري مستقر استقطب العديد من الأيدي المنتجة في مختلف ألوان النشاط الاقتصادي، فتأسست المصانع وتنوعت المحاصيل الزراعية ونشطت التجارة الداخلية والخارجية .

****

الهوامش

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٠٥ .

(٢) ج – ج لوريمر : دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج ٢، ص ٨١٩، أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر .

(٣) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه الجزيرة العربية، ص ٢٤٥ .

(٤) الملا : تاريخ هجر، ج ١، ص ٣٠٤ .

(٥) حمد الجاسر : مجلة العرب، الربيعان سنة ١٣٩٩هـ، ص ٧٧٥ .

(٦) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ٨٢ .

(٧) محمد آل عبدالقادر : تحفة المستفيد، ص ٥٢ .

(٨) محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الأسود، ص ٢٠٧ .

(٩) الملا : تاريخ هجر، ج١، ص ٣٢٣ .

(١٠) محمود شكري الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٣٢ .

(١١) ديوان ابن المقرب : تحقيق وشرح عبدالفتاح محمد الحلو، ط ٢، ص ٥٤٢ .

(١٢) ديوان ابن المقرب : تحقيق وشرح عبدالفتاح محمد الحلو، ط ٢، ص ٥٤٤ .

(١٣) مختارات قافلة الزيت : العدد الثامن، سنة ١٣٧٦هـ، ص ١٠٥ .

(١٤) د.عبدالله ناصر السبيعي : اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية، ص ١٢٧ .

(١٥) محمد شفيق غربال : الموسوعة الميسرة، ص ١٥٨٠ .

(١٦) المقدسي : نزهة المشتاق في اجتياز الآفاق .

(١٧) عبدالوهاب عيسى القطامي : الصيد والتنقل والتجارة في البحار، الملحق بنهاية كتاب والده دليل المحتار، ص ٢٠٨ .

(١٨) د.جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص ٥٤٥، ٥٤٦ .

(١٩) نوع من السمك : الملا : تاريخ هجر، ج ١، ص ٣٣٦ .

(٢٠) ديوان طرفة بن العبد .

(٢١) المقدسي : نزهة المشتاق في اجتياز الآفاق .

(٢٢) المقدسي : نزهة المشتاق في اجتياز الآفاق .

(٢٣) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ٨٤ .

(٢٤) د.جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٥٤٥ .

(٢٥) سليمان سعدون البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، ص ٨٣ .

(٢٦) مجلة أطلال : العدد السادس، ص ٩٦ .

(٢٧) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٩٥ .

(٢٨) المعجم الجغرافي: «المنطقة الشرقية» القسم الأول، ص ٧٢ .

(٢٩) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ٨٥ .

(٣٠) عبدالفتاح محمد الحلو : شرح ديوان ابن المقرب، مكتبة التعاون الثقافي، ط٢، ص٥٤٠ .

(٣١) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٢٠٣ .

(٣٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٢٢٧ .

(٣٣) سليمان إبراهيم العسكري : التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي ، ص ١٥٣ .

(٣٤) سليمان إبراهيم العسكري : المرجع نفسه ، ص ١٩٣ .

(٣٥) مجلة المنهل : ج٣، ربيع الأول سنة ١٣٩٣هـ ، ص ١٩٤ .

(٣٦) أبومحمد الحسن بن أحمد الهمداني : صفة جزيرة العرب، مطبعة السعادة، ص١٧٩، ١٨٠.

(٣٧) أبوزكريا يحيى بن شرف النووي : رياض الصالحين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ص ٥٢٨ .

(٣٨) مقدمة ابن خلدون : دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ٧٢١ .

(٣٩) مجلة الوثيقة : العدد السابع، شوال سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٩٨: ٢٠٠ .

(٤٠) خيرالدين الزركلي : الأعلام، ج ٩، ج ١٠.

(٤١) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص ٨٤ .

(٤٢) ج – ج لوريمر : دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج ٢، ص ٨٤٧ .

(٤٣) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ٨٢ .

(٤٤) لسان العرب : ج ١، ص ١٠٥ .

✱✱✱✱

القسم الثاني

التاريخ

الفصل الأول
التاريخ السياسي قبل عهود الاستقلال

أ. العصر الجاهلي وصدر الإسلام:

قامت في الأحساء عدة ممالك وحكومات خاصة بها منذ فجر التاريخ المدون كما تعرضت للغزو من جيرانها الأقوياء مرات عديدة، من تلك الممالك إمارة الجرهاء[١] التي نشأت في الفترة من خمسمائة قبل الميلاد إلى ثلاثمائة ميلادية، وقد كانت لها شهرة فائقة في الوساطة التجارية بين مراكز الحضارات القديمة إذ وصلت سفن وقوافل الجرهائيين[٢] إلى الصين والهند وشرقي إفريقيا إلى جانب الشام واليمن .

وقد حقق الجرهائيون بنشاطهم التجاري ثروة فائقة الشهرة، واكتنزوا الذهب والفضة والأحجار الكريمة واتخذوا منها آنيتهم وزينوا بها منازلهم، وأسالوا بذلك لعاب الطامعين في غزوهم، فقد ذكرت المصادر أن «الإسكندر» قد أدرج مدينة الجرهاء ضمن مخططاته التوسعية في «آسيا» بيد أن المنية عاجلته قبل أن ينال مراده.

كما قام الملك السلوقي «أنطيوخس الثالث»[٣] بعد الميلاد بحملة قادها بنفسه لإخضاع الجرهاء ولكن أهلها نجحوا في صرفه عن غزوهم بأسلوب دبلوماسي يدل على براعتهم في السياسة وميلهم للأمن والسلام، ومن أشهر ملوك هذه الإمارة: «أبياطع»، و«أبي أيل»[٤]، و«ساتيروم».

وقد زالت هذه الإمارة بعد أن أدركها الضعف بتحول الطرق التجارية عنها وعلى أيدي الغزاة من البلدان القوية حولها، وكذلك زحف القبائل العربية القادمة إلى هذه

البلاد من تهامة[٥] .

وقد دخلت الأحساء تحت رايات متعددة من النفوذ الخارجي كنفوذ «الحميريين» في أيام «ذا رياش آرام بن عوف بن حمير» و«النعمان بن يعفر بن السكك»[٦] وكلاهما من أحفاد «يعرب بن قحطان»، ثم تأسست بالأحساء إمارة قوية تحت راية «مالك» و«عمرو» ابني «سعد بن تميم بن أزد بن وبرة بن قضاعة» حين زحفوا إلى هذه البلاد بجيوش من «قضاعة ونمارة بن لخم»، وقد زالت هذه الإمارة على يد قبائل عبدالقيس حين قدمت من تهامة فأمسكت بزمام السلطة في هذه الأراضي[٧]، وقد اشتدت شوكتها فغزت سواحل فارس وأقامت بها إبّان الوصاية على عرش «سابور بن مرسي بن بهرام»[٨] ، بيد أن سابور لما شبّ عن الطوق قام بغزو «البحرين» أي هجر وألحقها بدائرة نفوذه[٩] ، ولكن السيطرة الفارسية على هذه البلاد كانت في أكثر الأوقات مجرد سيطرة اسمية حيث ظلت السلطة الحقيقية في أيدي العرب، ومن أشهر ولاتها في تلك الفترة: «الربيع بن حوثرة»[١٠] الملقب «بأبي عائشة الحوثري»، و«أبو كرب ربيعة بن الحارث»، و«عبد هند»، و«جون الكلبي»[١١]، و«المنذر بن ساوى»[١٢] الذي أدرك الإسلام ودخل فيه .

أما بعد إشراقة الإسلام في مكة والمدينة فإن التاريخ يسجل بأحرف من نور لهذه البلاد عدداً من المواقف والإسهامات الفعّالة، فقد بادر أهلها إلى الانضواء تحت بنود الإسلام فشرفوا بالسبق في اعتناق مبادئه والجهاد في سبيل نشره بمحض اختيارهم ومن غير إكراه[١٣] .

تحدثنا المصادر أن رئيس عبدالقيس «المنذر بن عائذ» الملقب «بالأشج»[١٤] حين علم بظهور الإسلام أوفد ابن أخته «عمرو بن منقذ» لاستقصاء الخبر في الحجاز، فعاد إليه مسلماً ومعه خطاب من الرسول الكريم يدعو فيه الأشج إلى الإسلام، فلبّى على الفور النداء ودعا قومه إلى اعتناق الإسلام فأجابوه وحوّلوا بيعتهم في «جواثا»[١٥] مسجداً لا تزال بقاياه شاهدة على سبقهم في هذا الفضل، فقد شهد أول جمعة تقام

في الإسلام خارج المدينة المنورة[١٦].

وقد سار منهم لمقابلة الرسول وفدان، كان الأول في السنة الخامسة من الهجرة برئاسة «الأشج»[١٧]، والثاني[١٨] كان في السنة التاسعة من الهجرة برئاسة «الجارود العبدي»[١٩]، وقد نالوا في الوفادتين التكريم والثناء من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم .

وقد أوفد «العلاء بن الحضرمي»[٢٠] إلى «المنذر بن ساوى» يدعوه إلى الإسلام فبادر إلى الترحيب به واعتنق الإسلام كما أسلم معه جميع العرب وبعض العجم من سكان هجر، فأقر الرسول «المنذر» في حكم هجر مكتفياً بإيفاد بعض أصحابه بين الوقت والآخر لمساعدة «المنذر» في نشر تعاليم الإسلام وجبي الصدقات والخراج، ومن هؤلاء «أبوعبيدة عامر بن الجراح» و«أبوهريرة» و«أبّان بن سعيد بن العاص»[٢١] رضي الله عنهم ، وكان أكبر مبلغ مالي يتسلمه الرسول في حياته مائة وخمسين ألفاً حملها إليه من هجر «أبوعبيدة عامر بن الجراح» وقد فرقها الرسول على المسلمين في المسجد حال استلامها .

وقد توفي «المنذر بن ساوى»[٢٢] بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى بأيام قليلة فتعاقب على إدارة البلاد طيلة أيام الخلافة الراشدة عدة ولاة يتم تعيينهم من قبل الخلفاء، كما ظل خراجها من أهم الروافد لإنعاش الدولة الإسلامية الناشئة ودعم مسيرة الجهاد بما يلزمها من الأموال والمؤن[٢٣] .

ذكرت المصادر أن «أبا هريرة» قدم من هجر إلى المدينة فصلى مع «عمر بن الخطاب» عشاء فسأله «عمر» عمّا معه فقال: خمسمائة ألف ، فاستعظم «عمر» هذا المبلغ وأراد التثبت منه بإعادة السؤال أكثر من مرة، ورغم تأكيد «أبي هريرة» لما ذكر بالعدّ على أصابعه فقد قال له «عمر»: إنك ناعس فإذا أصبحت فَأْتنا، وفي الصباح جاء «أبو هريرة» بالمال المذكور إلى المسجد ، فقام «عمر» فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس قد جاءنا من هجر مالٌ عظيم فإن شئتم كلنا لكم كيلاً وإن شئتم وزنّا لكم

وزناً، فقال أحد الحاضرين : لقد رأيت الفرس يدونون ديواناً يعطون الناس عليه، فأمر الخليفة «عمر» بتدوين الديوان فكانت تلك أولى الخطوات في التنظيم المالي والإداري[٢٤]، ومما يحسب لأهل هذه البلاد ثبات معظمهم على الإسلام[٢٥] حين ارتد أكثر العرب في أعقاب وفاة الرسول كما كان لهم فضل السبق في فتح فارس، فقد جاء في المعجم «لياقوت»: أما فتح فارس فكان بدؤه أن «العلاء بن الحضرمي» وجّه «عرفجة بن هرثمة» في البحر فعبر إلى أرض فارس ففتح جزيرة مما يلي فارس[٢٦] .

أما في العصرين الأموي والعباسي فقد مُنيت هذه البلاد بما مُني به غيرها من أقاليم الجزيرة من الفتن والاضطرابات، إذ تغلب عليها الخوارج النجدات حين نجحوا في إقامة دولة خاصة بهم في اليمامة بزعامة «نجدة بن عامر الحنفي»[٢٧]، وقد اتخذوا من هجر حاضرة لدولتهم حين نجح «أبو فديك بن ثعلبة» في الاستئثار بزعامة الخوارج إلى أن تم القضاء عليه وعلى حركته سنة ٧٢هـ على يد الخليفة «عبدالملك بن مروان».

وبنهاية هذه الحرب تمكن «عبدالملك» من بسط سيطرته على البحرين واليمامة[٢٨] وأسند إدارة شؤون البحرين «إلى الأشعث بن عبدالله بن جارود العبدي»، وكان القضاء على «أبي فديك»[٢٩] قد أنهى دور النجدات في البحرين ولكنه لم يضع حداً للحركات الخارجية الأخرى التي ظهرت على المسرح السياسي في هذه البلاد، فقد تسلمت راية الخروج والتمرد على مركز الخلافة عناصر من عبدالقيس لم تكن دوافعها الانتصار لنظرية دينية أو سياسية معينة، بل كانت دوافعها في المقام الأول الرغبة الجامحة في تخليص البلاد من سلطة الإدارة المركزية وسيطرة الخلفاء الذين لا تعنيهم هموم ومشاكل رعاياهم في الأقاليم البعيدة، بقدر ما يهمهم مقدار المال الذي يصل إلى خزائنهم من الأموال المستنزفة من تلك الأقاليم، بغضّ النظر عن الطرق التي تُجبى بها تلك الأموال وما يرافقها في الغالب من مظالم وفظائع تعمل باستمرار على زرع الحقد والكراهية للسلطة في نفوس الناس، وتكون أسباباً حقيقية لاندلاع الثورات وحركات التمرد، كما أن تلك الحركات إذا حدثت لم تكن تعالج بالأساليب السليمة التي تزيل أسباب قيامها وتمنع تكرار حدوثها وهي إزالة المظالم وإشاعة العدل وتوفير الحياة

الكريمة لجميع الناس، بل الذي كان يحدث عكس ذلك تماماً، فكانت الجيوش التي توجه لقمع حركات التمرد تعمد في حالة انتصارها على تلك الحركات إلى أفظع وسائل التنكيل والبطش والأعمال الانتقامية والتخريبية: كالقتل بدون تمييز، أو أخذ البريء بجريرة المذنب، وهدم المنازل، وحرق المحاصيل الزراعية، وطمّ الآبار، إلى غير ذلك من الأساليب القمعية الوحشية التي تزيد مرارة الناس وتعمق جراحاتهم وتجعلهم جاهزين للقيام بالأعمال الانتقامية كلما وجدوا الفرصة المواتية لذلك. وهذا ما سنراه في الانتفاضات التي قادتها عناصر من عبدالقيس في البحرين حيث قاموا بسلسلة من الانتفاضات العنيفة ضد السلطتين الأموية والعباسية، جاءت تعبيراً عن معاناة سكان هذا الإقليم وما تنطوي عليه نفوسهم من تذمر وسخط على مركز الخلافة، بسبب عدم مبالاته بالنظر في مظالمهم وتقصيره في رعاية مصالحهم وحماية حقوقهم، وتطبيق ما يأمر به الشرع من العدل في الحكم والإنفاق وتوفير حياة الأمن والاستقرار .

ب. انتفاضات بني عبدالقيس في البحرين:

انتفاضة بني محارب:

انتفض في البحرين بنو «محارب بن عمرو بن وديعة»، ولكن عامل الأمويين «محمد بن صعصعة» تمكن من القضاء على تلك الانتفاضة بمؤازرة من والي اليمامة الذي كلّفه الخليفة الاشتراك مع والي البحرين في تلك المهمة .

وفي سنة ٧٩هـ الموافق ٦٩٨م انتفض بالخط جماعة بقيادة رجل يدعى «ريان النكري»[٣٠]، وقويت شوكتها واشتد خطرها حين قدمت من عُمان جماعة أخرى بقيادة رجل يسمى «ميمون» ما كادت تستقر في دارين وتعلم بثورة الخط حتى بادرت بالانضمام إليها، فحاول مولى الأمويين «محمد بن صعصعة» القضاء على تلك الانتفاضة واستنفر الأهالي للنهوض بتلك المهمة بيد أنه لم يجد أذناً صاغية من عبدالقيس، فأعدّ جيشاً من الأزد بيد أنه لم ينجح في قمع حركة «الريان»، فآثر النفاذ

بجلده وغادر البحرين، ولكن الخلاف لم يلبث أن ثار بين «الريان وميمون» فاضطر الأخير إلى ترك البحرين والعودة لعُمان، واستقر الريان «بالزارة».

وفي سنة ٨٠ هـ الموافق سنة ٦٩٩م أرسل «الحجاج» جيشاً إلى البحرين بقيادة «يزيد بن أبي كبشة» في اثني عشر ألف مقاتل والتقى «بالريان» وكان عدد أصحابه لا يزيد على الألف وخمسمائة مقاتل، فدارت بين الفريقين معركة بالغة العنف في ميدان «الزارة» أسفرت عن مصرع «الريان» وقتل عدد كبير من أتباعه[٣١]، وصلب «يزيد بن أبي كبشة» الريان وكبار أصحابه ليكونوا عظة وعبرة لمن تسول له نفسه الخروج والتمرد مرة أخرى .

وعلى الرغم من شدة الإجراءات التي اتبعها «يزيد بن أبي كبشة» في قمع الخارجين على الطاعة والتنكيل بهم، فقد ثار بالبحرين على إثر مصرع الريان «داود بن محرز بن عبدالقيس»[٣٢] في جماعة من قومه، فاستولى على القطيف وأقام بها وأمر بإنزال جثة الريان وغيره من المصلوبين ودفنهم، وألحق الهزيمة بجيش أعدّه لقتاله «البهاء» صاحب شرطة القطيف، كما ألحق الهزيمة أيضاً بجيش تشكّل معظم أفراده من الأزد سار لقتاله بإمرة «عبدالرحمن بن النعمان العوذي».

انتفاضة «مسعود بن أبي زينب»:

وفي سنة ٨٦ هـ[٣٣] الموافق سنة ٧٠٥م انتفض في البحرين «مسعود بن أبي زينب المحاربي بن عبدالقيس»[٣٤] في جماعة من قومه وطردوا عامل الأمويين «الأشعث بن عبدالله بن الجارود العبدي»، كما تمكن من قمع مقاومة الأزديين له وقتل «عبدالرحمن بن النعمان العوذي»[٣٥]، وأراد غزو اليمامة ولكن عامل الأمويين «سفيان بن عمرو العقيلي» أعدّ جيشاً كبيراً من بني حنيفة للدفاع عن اليمامة ودارت في الموضع المعروف «بالخضرمة»[٣٦] بين الجيشين معركة طاحنة سقط خلالها «مسعود» قتيلاً وحلّ محله في قيادة الخوارج «هلال بن مدلج»[٣٧]، وتوافدت على أرض المعركة أعداد كبيرة من بني حنيفة وأحاطوا بالخوارج إحاطة الأغلال بالمغلول وأكثروا فيهم القتل، وكان من بين القتلى

في ذلك اليوم «زينب» أخت «مسعود» ولاذ «هلال» بمن فضل معه من أتباعه بقصر كان هناك، وتسوّرت جماعة من بني حنيفة القصر وظفرت «بهلال» فقتلته بعد أن استأمن أصحابه لأنفسهم، وكانت مدة حكم «مسعود» للبحرين تسع عشرة سنة.

انتفاضة سعيد المحاربي :

لم يكد الأمويون يلتقطون الأنفاس بعد الفراغ من تلك الحوادث حتى انتفض في البحرين أيضاً «سعيد المحاربي»[٣٨] وهو أخو «مسعود» السالف الذكر، ونجح في الاستيلاء على مقاليد الحكم في البلاد، ولكن سرعان ما نشب خلاف بينه وبين واحد من كبار أتباعه يدعى «عون بن بشير» أحد بني «محارب بن عامر» وأكفر كل منهما صاحبه، فانقسمت الحركة على نفسها إلى جماعتين، استقرت إحداهما في هجر مع «سعيد» وتوجهت الأخرى إلى القطيف برئاسة «عون»، ولكن «سعيداً» تمكن من القضاء عليه واغتياله بُغية الانفراد بحكم البلاد.

خروج «المهير بن سلمة» أحد بني حنيفة في البحرين واليمامة :

قال ابن الأثير : لما قُتل «الوليد بن يزيد»[٣٩] كان على اليمامة «علي بن المهاجر» استعمله عليها «يوسف بن عمر الثقفي»، وكان «علي بن المهاجر» يسكن في قصر له بهجر بموضع يسمى القاع، فقال له «المهير بن سلمة»: اترك لنا بلادنا فأبى، فجمع له «المهير» وسار إليه في هجر، فخرج «علي» لقتاله فاقتتلوا، وانهزم أصحاب «علي» فدخل حصنه ثم هرب إلى المدينة، وقتل «المهير» أناساً من أصحابه، وكان «يحيى بن أبي حفصة» نهى «ابن المهاجر» عن القتال فعصاه فقال :

بذلتُ نصيحتي لبني كلابٍ
فلم تقبل مشاورتي ونصحي
فِداً لبني حنيفةَ من سواهم
فإنهمُ فوارسُ كلِّ فتحِ

وتأمّر «المهير» على اليمامة ثم مات واستعمل على اليمامة «عبدالله بن النعمان» أحد بني قيس بن ثعلبة بن الدؤل، ثم قدم «المثنى بن زيد بن عمرو بن هبيرة الفزاري» والياً على اليمامة في عهد «مروان بن محمد»[٤٠] .

انتفاضة «سليمان بن حكيم» في البحرين :

في سنة ١٥١هـ الموافق سنة ٧٦٩م انتفض في البحرين جماعة أعلنت التمرد والخروج على «أبي جعفر المنصور» بزعامة «سليمان بن حكيم العبدي»[٤١]، فبادر المنصور إلى إعداد جيش وجهه إلى البحرين بقيادة «عقبة بن سلمة الأزدي» والي البصرة، فالتقى الفريقان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس تمكن فيها الجيش العباسي من إلحاق الهزيمة بالمتمردين وقتل زعيمهم .

ولم يكتف القائد العباسي بإخماد تلك الانتفاضة فقد ارتكب من أعمال العنف والوحشية ما لا يجوز فعله مع أشد الأعداء، إذ قتل كل من قدر على قتله من الرجال وسبى النساء والأطفال وأسر كثيراً من أهل البلاد ونقلهم إلى بغداد وتركهم «للمنصور» يتحكم فيهم كما شاء له هواه، فقتل بعضهم ووهب آخرين لرجال حاشيته كولي عهده «المهدي» الذي قام بإطلاق سراحهم وتكريمهم في محاولة للتخفيف من آثار الممارسات الفظيعة لجيش المنصور مع أهل البحرين .

ولكن مراجل الغيظ والغضب من تلك الأعمال ظلت تغلي في نفوس عبدالقيس حتى قام أحد أفرادها بالانتقام لها من ذلك القائد، على باب ديوان الخلافة نفسها بجرأة عجيبة، صارت مسرى المثل بين الناس فقيل: أجرأ من قاتل عُقبة .

فقد جاء في كتاب الأمثال «للميداني» ما نصه، قال: «أبوعمرو القوعيني عقبة بن سلم» من بني هُناءة من أهل اليمن صاحب دار عقبة بالبصرة، وكان «أبو جعفر» وجّهه إلى البحرين وأهل البحرين «ربيعة» فقتل «ربيعة» قتلاً فاحشاً، قال: فانضم إليه رجل من عبدالقيس فلم يزل معه سنين وعُزل عقبة فرجع إلى بغداد ورحل «العبدي» معه، وكان «عُقبة» واقفاً على باب «المهدي» بعد موت «أبي جعفر» فشد عليه

«العبدي» بسكين فوجأه في بطنه فمات «عُقبة»[٤٢]، وأُخذ «العبدي» فأُدخل على «المهدي» فقال : ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : إنه قتل قومي وقد ظفرت به غير مرة إلاّ أني أحب أن يكون أمره ظاهراً حتى يعلم الناس أني أدركت ثأري منه، فقال «المهدي» : إن مثلك لأهل أن يُستبقى ولكن أكره أن يتجرأ الناس على القواد فأمر به فضُربت عنقه، ويُقال إن الوجأة وقعت في شرجة منطقة «عقبة» قال: فجعل «المهدي» يُسائل «العبدي» و«العبدي» يبكي إلى أن دخل داخل فقال : يا أمير المؤمنين مات «عُقبة» ! فضحك «العبدي» فقال له «المهدي»: ممّ كنت تبكي؟ قال من خوفي أن يعيش فلما مات أيقنت أني أدركت ثأري.

انتفاضة «سيف بن بكير»:

وفي سنة ١٩٠هـ الموافق سنة ٨٠٦ م انتفض في البحرين على مركز الخلافة «سيف بن بكير» أحد بني عبدالقيس، وتمكن من السيطرة على هجر، فوجه إليه الرشيد جيشاً على رأسه «محمد بن مزيد»، والتقى الطرفان في الموقع المعروف باسم «عين النورة»[٤٣] ودارت بينهما معركة بالغة العنف أسفرت عن قتل «سيف بن بكير» وهزيمة أتباعه، ولكن عبدالقيس وسائر قبائل البحرين ظلت تمارس انتفاضاتها وضغوطها على السلطة العباسية حتى تمكنت في نهاية المطاف من رفع يد العباسيين عن بلادهم، فمسكت مقاليد السلطة فيها إمارات من عبدالقيس ظلت تتوارث الحكم كابراً عن كابر حتى تم القضاء عليها في العقد التاسع من القرن الثالث الهجري .

حركة صاحب الزنج :

بدأت هذه الحركة في سنة ٢٤٩هـ الموافق سنة ٨٦٣ م على يد رجل تضاربت الروايات في حقيقة نسبه لكثرة ما كان يرتديه من القُمص في هذا الشأن، وإن كانت تلك الروايات لا تخرج عن دائرة اعتباره إمّا من عبدالقيس أو العلويين .

فقد جاء في الطبري[٤٤] أن اسمه ونسبه في ما ذكر «علي بن محمد بن عبدالرحيم»، ونسبه في عبدالقيس[٤٥]، وأمه «قُرة بنت علي بن رحيب بن محمد بن

حكيم» من بني أسد بن خزيمة من ساكني قرية من قرى الري يُقال لها «ورزنين» وبها مولده ومنشؤه، فذُكر عنه أنه كان يقول: جدي «محمد بن حكيم» من أهل الكوفة أحد الخارجين على «هشام بن عبدالملك» مع «زيد بن علي بن الحسين»، فلما قُتل «زيد» هرب فلجأ إلى «ورزنين» فأقام بها، وإن أبا أبيه «عبدالرحيم» رجل من عبد القيس كان مولده «بالطالقان» وإنه قدم العراق فأقام بها واشترى جارية سندية فأولدها «محمداً» أباه فهو «علي بن محمد» هذا .

كما جاء عن الطبري أيضاً أن صاحب الزنج قد ادّعى الانتساب إلى بيت «علي بن أبي طالب» ولكن دون الثبات على فرع واحد من فروع ذلك البيت، ولعل نسبته إلى عبدالقيس هي الأقرب إلى الصواب لما مر من عدم ثباته على فرع واحد من فروع العلويين وإنكار العلويين لنسبته فيهم، ووجود دوافع معينة تدفعه للانتماء إلى البيت العلوي، وهي الرغبة في استغلال ما يكنه الناس لذلك البيت من مشاعر الود وما يبدون من تعاطف معهم في المحن التي كانوا يتعرضون لها، ليكتسب بذلك لحركته قوة جذب سريعة ومستمرة، وقد نجح في هذا المضمار نجاحاً كبيراً حيث تمكن من إقناع أناس كثيرين بصحة انتسابه إلى البيت العلوي بمن فيهم بعض العلويين أنفسهم .

هذه القرائن واتخاذ صاحب الزنج موطن عبدالقيس وهو البحرين نقطة البداية لدعوته، تجعلنا نرجح صحة ادعاء انتسابه إلى عبدالقيس واستبعاد كل ما عداها من المزاعم في هذا الشأن .

ومهما يكن من شيء فإنه في سنة ٢٤٩هـ الموافق سنة ٨٦٣ م اتجه من سامراء إلى البحرين، وادّعى أنه «علي بن محمد بن الفضل بن عبدالله بن العباس بن علي بن أبي طالب»، ومن ثم شرع في الترويج لدعوته زاعماً أنه رسول العناية الإلهية إلى الناس ليخلصهم من المظالم التي يرزحون تحت نيرها، وإعادة بناء المجتمع على أسس العدالة والمساواة ومنع الاستغلال والتمييز العنصري .

فانخدع بظاهر دعوته قوم من هجر وعارضه آخرون[٤٦] ورفضوا أفكاره، واشتد

الجدال في أمره بين مؤيديه ومعارضيه، ونشبت بين الطرفين معارك ضارية في مواقع متعددة ذهب ضحيتها عدد كبير من الناس، وأدرك صاحب الزنج أن الأمور في هجر لا تسير في صالحه فتحول عنها إلى أحساء بني سعد، وأقام بينهم فنجح إلى حد كبير وصار له أتباع ومريدون رفعوا مقامه وذبوا عنه بقوة السلاح، وجبوا له الخراج ولم يمض وقت طويل حتى تبين لأتباعه بطلان دعوته وحقيقة أمره فمقتوه ونفروا منه، فانتقل إلى البادية وفي معيته عدد قليل من خلصائه بينهم كيّال من أهل الأحساء يُقال له «يحيى بن محمد الأزرق» المعروف «بالبحراني» مولى لبني دارم، «ويحيى بن أبي ثعلبة» تاجر من أهل هجر، و«سليمان بن جامع» من موالي بني حنظلة وقد جعله قائداً لجيشه، وما زال يتنقل في البادية من حي إلى حي حتى أوهم الأعراب أنه «يحيى بن عمرو أبوالحسين» المقتول بناحية الكوفة، فانخدع بمزاعمه كثير من أهل البادية فأعدّ منهم جيشاً كبيراً وسار به إلى هجر حاضرة البحرين وتصدى له أهلها ودخلوا معه في معركة حامية الوطيس في موضع يُدعى «الردم»[٤٧] أسفرت عن هزيمته وقتل عدد من أصحابه، فانفضت عنه العرب وكرهت صحبته فسار إلى البصرة سنة ٢٥٤هـ الموافق سنة ٨٦٧ م، ونزل في بني ضبيعة واختار جماعة من أصحابه الذين حضروا معه من البحرين وهم «محمد بن سلمة القصاب» و«بريش القريعي» و«علي الضراب» و«الحسين الصيداني» لنشر دعوته، فذهبوا إلى مسجد يعرف باسم مسجد «عبّاد» وبدأوا في استمالة الناس والتأثير فيهم بشتى وسائل الإقناع فانتهى خبر نشاطهم إلى والي البصرة «محمد بن رجاء الحضاري» فاعتزم القبض عليهم، وبلغهم ذلك فلاذوا بالفرار ولحقوا بزعيمهم وتحوّلوا من البصرة إلى موضع آخر أكثر أمناً .

ولكن «ابن رجاء» تعقب أنصارهم في البصرة وزجّ بهم في السجن، وكان من بين من أُلقي عليهم القبض: «يحيى بن أبي ثعلب»، و«محمد بن حسن الإيادي» وابن صاحب الزنج «علي بن محمد الأكبر»، وزوجته أم ابنه ومعها ابنتان له وجارية حامل منه.

أما زعيم هذه الحركة فقد توجه في جماعة من خلصائه إلى بغداد وفي طريقه

إليها ظفر بهم في البُطيحة «عمير بن عمار» فحملهم إلى «محمد بن أبيعون» عامل السلطان بواسط، وبحيلة ماكرة تخلصوا من قبضته وساروا إلى مدينة السلام حيث أقام بها صاحب الزنج سنة كاملة انتسب فيها إلى «أحمد بن عيسى بن زيد»، كان يزعم أنه ظهر له أثناء مقامه في بغداد آيات وأنه يعرف ما في ضمائر أصحابه وما يفعل كل واحد منهم[٤٨] .

وفي مدينة السلام أحرز شيئاً من التقدم في دعوته فقد دخل في تبعيته عدد من أهلها كما كان على صلة بجماعة من آل المنتصر وبعض المقربين إلى الخليفة العباسي وكُتّابه .

وفي شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ الموافق سنة ٨٦٨ م عاد إلى البصرة، وكان أهله قد نجحوا في التخلص من السجن هناك فساروا جميعاً إلى موضع يعرف باسم «كرنخل»، وهناك نزل بقصر يُدعى بقصر «القرشي» حينئذٍ ادّعى أنه وكيل ولد الواثق في بيع السباخ وأمر أصحابه أن يدعوه بذلك[٤٩]، وحينئذٍ دخلت دعوته مرحلة جديدة فقد وجد في ألوف الزنوج الكادحين في السباخ الممتد من البصرة إلى واسط مجالاً خصباً لزرع أفكاره وعقائده وتحقيق مقاصده السياسية والعسكرية، فقد كان الزنوج هناك يعيشون حياة مزرية بائسة فيعملون في كسح السباخ طيلة ساعات النهار تحت ظروف مناخية بالغة القسوة وكل ما يحصلون عليه من ساداتهم مقابل تلك الأعمال المُضنية وجبة ضئيلة من الدقيق والسويق والتمر .

وكان الجلد بالسياط الغليظة أدنى ما يتعرض له أحدهم متى أبدى شيئاً من التذمر أو التواني في القيام بواجبه، لذا فعلت دعوة هذا الخارجي في أنفسهم فعل السحر حيث لاحت لهم فيها بارقة الأمل في الخلاص من حياة البؤس والهوان وهو ما لم يحلموا به في أي وقت مضى، وسارعوا لإجابته والسير في ركابه فاجتمع له منهم خلق كثير فعظم أمره وقويت شوكته فاتخذ له لواءً من الحرير نُقش عليه بالأخضر والأحمر الآيات الكريمة من قوله تعالى ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ [٥٠] .

كما كتب على اللواء اسمه واسم أبيه ثم جمع الزنج على ما يذكر «ابن جرير»[٥١] وقام فيهم خطيباً فمنّاهم ووعدهم بأن يقودهم وينقذهم ويملكهم الأموال، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألاّ يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا وأتى إليهم به، ثم دعا مواليهم فقال : لقد أردتُ ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون فكلمني أصحابي فيكم فرأيتُ إطلاقكم فقالوا: إن هؤلاء الغلمان أُبّاق وهم يهربون منك ولا يبقون عليك ولا علينا فخذ منا مالاً وأطلقهم لنا، فأمر غلمانهم فأحضروا عصياً ثم بطح كل قوم مولاهم أو وكيلهم وضرب كل واحد منهم خمسمائة عصا وأحلفهم بطلاق نسائهم ألاّ يُعلموا أحداً بموضعه ولا بعدد أصحابه حتى وصل «دُجين»، فوجد هناك سفناً فاستولى عليها واستقلها إلى نهر «ميمون»[٥٢] ثم غادرها إلى مسجد في وسط سوق البلدة فنزلوا به، يقول «ابن جرير»: وأقام هناك ولم يزل هذا دأبه يجتمع إليه السودان إلى يوم الفطر، فلما أصبح نادى في أصحابه بالاجتماع لصلاة الفطر فاجتمعوا وركز المردي الذي عليه لواؤهم، وصلى بهم وخطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك.

فلما فرغ من صلاته وخطبته أمر الذين فهموا عنه قوله أن يُفهموه من لا فهم له من عجمهم لتطيب بذلك أنفسهم، وقد أثرت تلك الخطبة في جموع الزنج تأثيراً عظيماً فازدادوا به ثقة وحوله التفافاً، فبنى مدينة أطلق عليها اسم «المختارة» ونزل بها مع أتباعه وأتم تحصين مدينته بالخنادق والأسوار ونقل إليها من المؤن والعتاد ما يجعلها قادرة على الصمود والمقاومة أطول مدة ممكنة .

حينئذٍ شرع في نشر جيوشه في العراق وخوزستان والبحرين وانتهب القادسية وألحق الهزائم بأهالي البصرة فنشر بذلك الهلع والرعب في قلوب الناس، فهبطت معنوياتهم وخارت قواهم أمام غاراته المتكررة عليهم، وطلبوا من الخليفة «المهتدي»

الإسراع في وضع حد لتلك الممارسات الإرهابية فوجّه إليه جيشاً كبيراً بقيادة أحد قواده الأتراك فلم يأت بطائل، فلما آلت الخلافة إلى «المعتمد» جهز جيشاً بقيادة «جعلان» أحد كبار قواده الأتراك[٥٣] فزحف على البصرة فاصطدم بالزنج في معركة حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة عسكر الخلافة العباسية ومصرع قائدها .

ومن ثم زحف صاحب الزنج على مدينة «الأبلة» فوقعت في قبضته، كما بسط سيطرته على «الأهواز» أيضاً فخشي أهل البصرة على أنفسهم فنزح أكثرهم إلى المناطق الأخرى، وفي سنة ٢٥٧هـ اقتحم الزنج البصرة وأضرموا فيها النار وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، كما واصلوا زحفهم على «واسط» و«رامهرمز» واستولوا عليهما فأخذ الخليفة «المعتمد» يرسل لقتالهم الجيوش تلو الجيوش ولكن دون جدوى، في حين كانت شوكة الزنج تزداد كل يوم قوة وصلابة لما تحقق من انتصارات ومكاسب حربية في قتالها مع العباسيين، فبادر الخليفة «المعتمد» بإسناد مهمة مطاردة الزنج والقضاء عليهم إلى أخيه «أبي أحمد الموفق»، و كان صاحب الزنج قد توالت غاراته الإرهابية على البحرين والعراق وخوزستان[٥٤]، فآلى «الموفق» على نفسه أن يضع حداً نهائياً لتلك الحركة ويخلص الناس من شرها، ففي صفر سنة ٢٦٧هـ الموافق سنة ٨٨٠ م جهز جيشاً جراراً تولى قيادته بنفسه وزحف على واسط والتحم مع الزنج في معركة ضارية دارت فيها الدائرة عليهم فذهب أكثرهم بين قتيل وجريح وأسير، كما كانت تلك المعركة بداية النهاية لحركة الزنج حيث تتابعت عليهم الهزائم وتم تحرير الأهواز وفرض «الموفق» حول مدينته المختارة حصاراً شديداً[٥٥] .

كما تمكن «العباس بن الموفق» من إحكام حصار المختارة بقطع الميرة والمدد عن الزنج بصورة فعّالة حتى اضطروا بسبب الجوع ونضوب الموارد والمؤن إلى أكل لحوم موتاهم، وبعد مدة نجح «الموفق» في الاستيلاء على الجزء الغربي من المدينة فخاب رجاء الزنج في الخلاص من تلك المحنة فانحاز أكثرهم إلى «الموفق» وطلبوا منه الأمان فأمّنهم وأحسن معاملتهم فعجل ذلك بسقوط كامل المدينة في قبضته، وتم قتل «يحيى

بن محمد الأزرق» من أمراء الزنج، كما أسر «سليمان بن جامع» و«إبراهيم بن جعفر الهمداني المهلبي» و«انكلاي بن صاحب الزنج».

وفي الثاني من صفر سنة٢٧٢ هـ الموافق سنة ٨٨٥ م تم قتل صاحب الزنج[٥٦] بعد أن دوّخ الدولة العباسية وبث الرعب والهلع في نفوس الناس مدة أربع عشرة سنة وستة أيام وعاد الناس إلى بلادهم التي استولى عليها الزنج .

إن هذه الحركات والانتفاضات المتكررة التي قادتها عبدالقيس في البحرين قد جاءت بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلادهم، جراء انحراف مسار سياسة الأمويين والعباسيين عن أقاليم شبه الجزيرة العربية وإهمال شؤونها وتحويلها إلى أرض خصبة لزرع شتى الدعوات والعقائد والأفكار المتنوعة، وبدافع الرغبة في تصحيح مسار تلك السياسة كإصلاح الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في بلادهم، قامت انتفاضات متعددة فشلت في إطفاء جذوتها جميع الوسائل القمعية التي مارستها معها سلطة الخلافة، فقد ظل مسلسل العنف المتبادل بين عبدالقيس والسلطة القائمة حتى انحسر في نهاية المطاف ظل تلك السلطة عن بلاد البحرين، لتحل مكانها زعامات محلية خالصة من بني عبد القيس الذين قويت شوكتهم وتعاظمت قوتهم، حتى تم لهم الاستيلاء على مقاليد الحكم في بلادهم ولم يتركوا فيها للدولة العباسية موضع قدم، كما تؤيد ذلك شواهد التاريخ. غير أن تلك الزعامات لم تنجح في توحيد صفوفها تحت لواء واحد بسبب التنافس على الشرف والرياسة الذي لم يهدأ أواره بين شيوخها فصارت بالتالي غرضاً لطمع الطامعين .

وبحلول عام ٢٨٧هـ توارت تلك الزعامات تماماً عن المسرح السياسي على يد «أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي»، ومن أشهر تلك الإمارات: مملكة آل مسمار من بني عبدالقيس في القطيف، وزعامة بني عامر في هجر، وزعامة عياش بن سعيد بن محارب من عبدالقيس وكان يقيم بجبل الشبعان .

وقد أشار شارح ديوان ابن المقرب إلى تسلم بني عبدالقيس مقاليد الحكم في البحرين[٥٧] وانبثاق ممالك بزعامتهم، فهو يقول عند الكلام عن بطون عبدالقيس: «ومن ربيعة بني عبدالقيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة» وولد عبدالقيس أفصى واللبؤ، وولد أفصى شناً ولكيزاً، أما اللبؤ وإخوته لأمه بكر وتغلب وعنز وكانوا أحد رجال العرب الستة فكانت مملكتهم هجر والبحرين والقطيف ونواحيها ولم يزالوا يتداولون الولاية حتى كان آخرهم بني العياش بن سعيد رئيس بني محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس، والعريان رئيس بني مالك بن عامر، وهو العريان بن إبراهيم بن الزحاف بن العريان بن مورق بن رجاء بن بشر بن صهبان بن الحارث بن وهب بن ضبة بن كعب بن عامر بن معاوية بن عبدالله بن مالك ابن عامر البطن المشهور الذي نُسب إليه عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة.

****

الهوامش

(١) نجيل جروم : أطلال، العدد السادس، ص ١٠٤ .

(٢) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، ص ١٤ .

(٣) نسبة إلى سلوقس أحد قواد الإسكندر المقدوني، وتقع مملكة سلوقيا على شاطئ دجلة قريباً من البصرة .

(٤) أطلال : حولية الآثار العربية، العدد السابع، سنة ١٩٨٣م، ص ٧٦ .

(٥) د.توفيق فهد : لجنة تدوين تاريخ قطر، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٢٩ وما بعدها .

(٦) محمد بن عبدالقادر : تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، ص ٥٤، ٥٥.

(٧) المعجم الجغرافي: المنطقة الشرقية،ج١، ص ٤٨، ٤٩.

(٨) أرثر كريستين : إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى خشاب، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٢٢٣ .

(٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ج ١، ص ٣٩٩ .

(١٠) الربيع بن حوثرة : ج ٩، ص ٥٣٧ ، ٥٣٨.

(١١) د.جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٧ .

(١٢) المنذر بن ساوى بن الأخنس العبدي من عبدالقيس أو من بني عبدالله بن دارم من تميم : أمير البحرين في الجاهلية والإسلام، أرسل إليه النبي قبل فتح مكة كتاباً مع «العلاء بن الحضرمي» يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وظل في عمله وتوفي بعد وفاة الرسول بأيام . خير الدين الزركلي : الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت، ج ٧ ، ص ٢٩٣ .

(١٣) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب،ج ٥، ص ٢٧٤ .

(١٤) هو المنذر بن عائذ من بني عصر من بني عبدالقيس، أول من دخل في الإسلام من بني عبدالقيس وقد رأس الوفادة الأولى إلى رسول الله فأحسن استقباله وأدناه منه ووصفه بالحلم والأناة. النووي: صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١ ص ١٨١ ـ أبو عبدالله محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ج ٥ ص ٥٦٤ .

(١٥) النووي : شرح صحيح مسلم، ج ١، ص ١٥٦ إلى ١٦٥ .

(١٦) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، باب أداء

الخمس من الإيمان، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ١٢٩ .

(١٧) أحمد بن حنبل : المسند، ج ٣، ص ٢٠٥ إلى ٢٠٦ .

(١٨) الحلبي بن برهان : في السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٤٩ .

(١٩) اسمه بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى، ولُقّب الجارود لأن إبله أصابها مرض فخرج بها إلى أخواله من بكر بن وائل فانتشر المرض في إبلهم فهلكت فقال الناس «جردهم بشر» فسمي الجارود . ابن سعد : الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج ٥، ص ٤٠٧ – ٤٠٨ .

(٢٠) العلاء بن ضماد بن سلمى بن أكبر من حضرموت، وكان حليفاً لبني أمية بن عبد شمس بن مناف. عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ١٠٨ .

(٢١) البلاذري : فتوح البلدان، ص٩٢ .

(٢٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٠٤ .

(٢٣) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٧٤ .

(٢٤) حمد الجاسر : المعجم الجغرافي، المنطقة الشرقية، ق ١، ص ٧٢ .

(٢٥) محمد بن عمر الواقدي: كتاب الردة رواية «أحمد بن محمد بن أعثم» تحقيق يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ص ١٤٧ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٢٥، ٢٢٨ .

(٢٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان .

(٢٧) نجدة بن عامر الحروري الحنفي من بني حنيفة من بكر بن وائل، رأس الفرقة النجدية، انفرد عن سائر الخوارج بآراء . كان أول أمره مع نافع بن الأزرق وفارقه لإحداثه في مذهبه ثم خرج مستقلاً باليمامة سنة ٦٦هـ ، ثم قتل على يد بعض أتباعه في البحرين .

(٢٨) عبدالرحمن بن خلدون المغربي : العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج ٣، ص ٣١٣ .

(٢٩) أبو فديك عبدالله بن ثور : أحد بني قيس بن ثعلبة لعب دوراً رئيسياً في خلع نجدة وقتله . عبدالقادر بن طاهر البغدادي : الفرق بين الفرق، ص ٩٠

(٣٠) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ١٤٣، نسبة إلى نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس .

(٣١) خليفة بن خياط : التاريخ، ج ١، ص ٢٧٦ – ٢٧٨ .

(٣٢) خليفة بن خياط : التاريخ ،ج ١، ص ٢٧٨ .

(٣٣) خليفة بن خياط : التاريخ، ج١، ص ٣٢٤ – في رواية أخرى في سنة ٩٦هـ .
(٣٤) في ديوان الفرزدق :ج١، ص ٢٢٦ «مولى لعبدالقيس».
(٣٥) الكامل : ج٥، ص١١٩ .
(٣٦) بلد بأرض اليمامة . ياقوت : ج٢، ص ٤٥١ .
(٣٧) ياقوت : ج ١، ص ٥٧٠ إلى ٥٧١ .
(٣٨) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ١٣٦ .
(٣٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٤، ص ٢٧٢ .
(٤٠) آخر خلفاء بني أمية .
(٤١) حمد الجاسر : المعجم الجغرافي، ج ١، ص ٨٠ .
(٤٢) الميداني : الأمثال، ج ٢، ص ١٨٤ .
(٤٣) محمد بن عبدالله آل عبدالقادر : تحفة المستفيد، ص ٨١ .
(٤٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٩، ص ٤١٠ .
(٤٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٩، ص ٤١٠ .
(٤٦) الملا : تاريخ هجر، ج ٢، ط٢ ، ص ٨٨ ،٨٩ .
(٤٧) الطبري : تاريخ الأمم، ج ٦، ص ١٧٤ .
(٤٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٣٤٧ .
(٤٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٣٤٧ .
(٥٠) سورة التوبة : آية رقم ١١١ .
(٥١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص ١٧٧ .
(٥٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، ج ٣، ص ٢١١ .
(٥٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، ج ٣، ص ٢١١ .
(٥٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٦٢ .
(٥٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٦٢ .
(٥٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص٣٦٢ .
(٥٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص٦٠٠ .

✱✱✱✱

الفصل الثاني
الحـــركة القرمطيـــة

أ ـ بدء الحركة القرمطية وانتشارها :

القرامطة في البحرين:

إن لضعف الدولة العباسية الناجم عن عوامل مختلفة ليس هنا موضع تفاصيلها أبعد الأثر في تمزق وحدة هذه الخلافة وظهور دول مستقلة وكيانات متعددة أوهنت الإسلام وحدّت من مسيرته نحو التقدم والرقي في مختلف مضامير الحياة .

فقد أصبحت سلطة الخلافة العباسية في الأقاليم الواقعة تحت دائرة نفوذها اسمية في البداية، وما زال ظلها آخذاً في التقلص والانكماش حتى انسلخت تلك الأقاليم عن حاضرة الخلافة العباسية نهائياً ومن بينها البحرين، فما كادت تلتقط الأنفاس بعد خمود زوبعة الزنج، حتى ظهرت فيها بعد بضع سنين حركة أشد عنفاً وأبعد خطراً وضعتها في مسار مستقل ومتميز في مختلف الأنماط الحياتية .

نشأة الحركة القرمطية :

نشأت الحركة القرمطية ضمن إطار فكري إسماعيلي باطني قام على أساس الاعتقاد بإمامة «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» رغم ما ذكر عن موته في حياة أبيه .

فالحركة القرمطية على ما يرى بعض الباحثين عملية مرحلية في تلك الفترة، وتعد خطوة من خطوات الإسماعيلية التي كانت تبدو في شكل حركات منظمة تتحرك وفق مخطط عملي مدروس يقوم على خداع الجماهير واستغلال عاطفتهم نحو آل البيت، وتعتمد التنظيم السري العسكري أسلوباً لتحقيق أهدافها، ومن ثم اشتركت القرمطية والإسماعيلية في العمل من هذا المنطلق .

وقد ظهرت بوادر الفكر الإسماعيلي في أيام «جعفر الصادق»، وتمكن «القدّاحيون»[1] من وضع هذا المخطط موضع التنفيذ وبلورته في منتصف القرن الثالث عن طريق بث الدعاة وزرع الخلايا في مختلف الأقطار الإسلامية، فحققوا نجاحاً كبيراً يتمثل في قيام الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٨٨هـ الموافق سنة ٩٠٠م على يد «عبدالله الشيعي»[2] ثم قيام الكيانات والحركات القرمطية .

الحركة القرمطية :

لقد كان مركز انطلاق هذه الحركة إلى حيز الوجود من سواد الكوفة التي كانت على ما يبدو من أخصب البقاع لنمو الأفكار المتطرفة واحتضان الحركات المعارضة لما يعانيه أهلها من ألوان البؤس والفاقة، ويذكر المؤرخ «المقريزي» في اتعاظ الحنفاء أن «حسين الأهوازي» عندما خرج من السلمية في منتصف القرن الثالث متوجهاً إلى سواد الكوفة من العراق، التقى بـ«حمدان بن الأشعث» الملقب بـ «قرمط»[3] في سواد الكوفة فتماشيا ساعة تمكن خلالها «الأهوازي» من السيطرة على «حمدان» والاستئثار بعقله وعواطفه ولم يلبث أن ألحقه بدعوته، كما ألحق من خلاله بالدعوة عدداً كبيراً من أهل تلك النواحي، وعندما حضرته الوفاة أقام مقامه «حمدان بن الأشعث» قرمطاً، وكان «حمدان» ذكياً داهية[4] فاستطاع بما يملك من قوة الإقناع ووسائل الإغراء أن يضم إلى دعوته معظم أهل تلك الناحية والنواحي المجاورة لها، وكان ممن أجاب دعوته: «مهداويه بن زكراويه السلماني»، و«جلندي الرازي»، و«عكرمة البابلي»، و«إسحاق السوداني» و«عطيف النيلي» وغيرهم[5] .

ومن أبرز دعاته «عبدان» ولهم دعاة تحت أيديهم، وكان كل داعية يدور في عمله ويجتمعون في كل شهر مرة، ودخل في دعوته خلق عظيم، ولم يبق بطن من البطون المتصلة بسواد الكوفة إلا دخلت في الدعوة منه أناس كثير أو قليل، ونصّب فيهم دعاة فقوي قرمط وزاد طمعه فأخذ في جمع الأموال من أتباعه وفرض عليهم الضرائب تحت أسماء مختلفة منها: «الفطرة» وهي درهم على كل واحد من الرجال والنساء، و«الهجرة» وهي دينار على كل رأس مدرك، ثم «البلغة» وهي سبعة دنانير، فلما استقر

له الأمر فرض عليهم أخماس ما يملكون ويكتسبون، ثم فرض عليهم «الألفة» وهي أن يحضر كل واحد منهم ما معه من المال وجمع ذلك في مستودعات خاصة وقال لهم لا حاجة لكم إلى مال يكون معكم لأن الأرض بأسرها ستكون لكم.

ثم اتفق الدعاة على تعيين موضع يكون لهم وطناً ودار هجرة يهاجرون إليها، فاختاروا من سواد الكوفة قرية تسمى «مهتماباز» ما لبثت أن أصبحت مدينة عظيمة التحصين انتقل إليها الرجال والنساء، وأقبلوا على جمع السلاح وإعداده فهابهم الناس، وبعد صراع مرير مع العباسيين تمزقت جموع القرامطة ثم عاود بعض أتباعهم الظهور من جديد في الأراضي الشامية وقاموا بحركات تمكنت جيوش الخلافة من القضاء عليها وتصفية وجودها[٦] .

ب. نشأة الدولة الجنابية في بلاد البحرين

الدولة الجنابية في البحرين وبدء الدعوة القرمطية فيها :

بدأت حركة القرامطة في البحرين بوصول دعاة «حمدان وعبدان» إلى هذه البلاد ومن بينهم «يحيى بن المهدي» و«أبو الفوارس» و«أبو سعيد بن حسن بن بهرام الجنابي»[٧]، فقد قدم هذا الأخير من جنابة[٨] بفارس إلى الكوفة، وأخذ أصول الدعوة القرمطية عن «عبدان» وقيل عن «حمدان» فصار داعية ونزل القطيف وهي حينذاك مدينة عظيمة ، فجلس بها يبيع الدقيق فالتزم الوفاء والصدق حتى صار ضامناً لمكوسها، فاجتمع له مال عظيم وعكف على نشر دعوته بجميع السبل فأجابه جماعة كثيرة[٩] من أهل القطيف منهم «الحسين وعلي وحمدان أبناء سنبر»، وبلغه أن هناك داعية يقال له «أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي»[١٠] أنفذه «عبدان» قبل «أبي سعيد» وكان قد استمال جماعة من آل سنبر، ورأى «أبو سعيد» في هذا الداعية منافساً خطراً فاحتال في التخلص منه حتى قتله، فأغضب قتله بعض مؤيديه من بني سنبر وحقدوا على «أبي سعيد»[١١] ففر إلى فارس وظل مقيماً في «جنابة» مسقط رأسه.

وفي سنة ٢٨١هـ الموافق سنة ٨٩٤ م قصد القطيف رجل يعرف بـ«يحيى بن المهدي» فنزل على رجل يسمى «علي بن المعلا [١٢] بن حمدان» مولى الزياديين، فأخبره

«يحيى» أنه رسول «المهدي» إلى شيعته في البلاد يدعوهم إلى أمره وأن ظهوره قد قرب، فجمع «علي بن المعلا» الشيعة من أهل القطيف وأقرأهم الكتاب الذي مع «يحيى بن المهدي» إليهم من «المهدي» فأجابوا أنهم خارجون معه إذا ظهر أمره، ولما اطمأن إلى طاعتهم وولائهم شرع في جمع الأموال منهم بوساطة كتب زعم أنها من «المهدي» على نحو ما كان يجري في سواد الكوفة، كما قصد البادية فأثّر في عدد من الأعراب واستمالهم إلى تبعيته، وفي هذا الوقت سمع به «أبوسعيد» في جنابة فلحق به وعكفا على تنسيق الجهود في ضم الأتباع والأنصار، ثم استطاع «أبوسعيد» في نهاية المطاف السيطرة على قيادة الحركة، فقاتل بمن أطاعه من عصاه حتى قويت شوكته وعظم أمره فأخذ في شن الغارات على نواحي القطيف .

استيلاء «أبي سعيد» على مدن الخط :

عقد «أبو سعيد» العزم على احتلال مدينة القطيف نفسها فاكتسحها وقتل رئيسها «علي بن مسمار»[١٣]، واستولى على ما بها من الأموال والعتاد وطارد فلول المنهزمين إلى «الزارة»، وكان عليها «الحسن بن عوام» فاستولى عليها وأحرقها وذلك في سنة ٢٨٣هـ الموافق سنة ٨٩٦ م، وتوالت غارات «أبي سعيد» على النواحي والقرى فكان لا يظفر بقرية إلا نهبها وقتل أهلها، فهابه الناس وأجابه بعضهم وفر كثير منهم إلى بلدان شتى خوفاً من شره[١٤]، واكتسح «صفوا» وكان فيها بنو حفص من بني عبدالقيس، ثم استولى على الظهران وأحساء بني سعد بن تميم، ثم احتل جواثا وكان عليها «العريان بن هيثم الربعي»، ثم استولى على مدينة «يبرين» فأباد أهلها[١٥] .

حصار مدينة هجر ثم استيلاء «أبي سعيد» عليها :

بعد أن أخضع «أبو سعيد» معظم مدن الخط تطلع إلى احتلال مدينة هجر وهي مدينة البحرين[١٦] ومنزل سلطانها وفيها التجارة والوجوه، فنازلها شهوراً يقاتل أهلها ثم وكل بها رجلاً وارتفع فنزل الأحساء وبينها وبين هجر ميلان فابتنى بها داراً وجعلها منزلاً، وأقبل على زراعة الأرض ودعا العرب فأجابه قوم من بني كلاب ووجّه جيشاً إلى بني عقيل[١٧] وظفر بهم ودخلوا في طاعته، فلما اجتمع إليه العرب منّاهم

مُلك الأرض كلها ورد إلى من أجابه من العرب ما كان أخذ منهم في المعارك من أهل وولد، ولم يرد عبداً ولا أمة ولا إبلاً ولا صبياً يزيد عمره على أربع سنين، ولم يزل يحاصر هجر ويشن عليها الغارات طيلة نيف وعشرين شهراً حتى سقطت في يده بعد أن نجح في قطع المياه عنها بتحويل مجرى العين التي تسقي حقولها إلى مياه الخليج، حينئذٍ فر بعض سكانها وركب آخرون البحر ودخل بعضهم في طاعته وخرجوا إليه فنقلهم إلى الأحساء، وبقيت طائفة لم يفروا لعجزهم ولم يدخلوا في دعوته فقتلهم وأخذ ما في المدينة وأخربها فبقيت خراباً وصارت مدينة البحرين هي الأحساء[١٨] .

وكانت الرياسة في هجر «لعياش بن سعيد»[١٩] من بني محارب و«العريان بن إبراهيم بن الزحاف» من بني عبدالقيس ومنزله بالقرب من جبل الشبعان، جاء في شرح ديوان ابن المقرب[٢٠] أن «أبا سعيد» طلب الأعيان والوجوه والقراء عندما دخل هجر بدعوى التداول معهم في إصلاح البلاد، فلما اجتمعوا أضرم عليهم النار ومن فر أخذته السيوف .

استيلاء «أبي سعيد» على عُمان :

بعد أن استكمل «أبو سعيد» سيطرته على البحرين سيّر بعض سراياه[٢١] إلى عُمان فدخلها عنوة واستولى على قصبتها «صحار»[٢٢] ثم مد نفوذه إلى اليمامة بعد أن قضى على دولة بني «الأُخيضر» بها وصادرهم .

القرامطة والعباسيون :

على إثر تلك الإنجازات التي أحرزها «أبو سعيد» في البحرين خشي «المعتضد» على البصرة فأنفذ لقتاله «أباالعباس بن عمرو الغنوي» بسبعة آلاف من الجند والمتطوعين من البصرة، وتصدى له «أبو سعيد» بسبعمائة فارس من كلاب وعقيل وبحرانيين[٢٣]، ودارت في الموضع المعروف بـ «آفان» قرب القطيف معركة ضارية انتهت بهزيمة الجيش العباسي وأسر قائده، وقتل أكثر أفراده وغنم «أبو سعيد» ما في ذلك العسكر من المال والسلاح، ومضى المنهزمون فتاه أكثرهم في البر وهلكوا عطشاً، وورد الناجون إلى البصرة فابتاع الناس وأخذوا في الرحيل، وكان ذلك في سنة ٢٨٩هـ وقيل سنة ٢٨٨هـ الموافق سنة ٩٠١ أو ٩٠٠م[٢٤] .

رسالة «أبي سعيد» إلى الخليفة المعتضد العباسي:

أمر «أبو سعيد» بإعدام جميع الأسرى باستثناء «العباس بن عمرو الغنوي»، وقد أحضره «أبو سعيد» بعد المعركة بأيام وقال له : أتحب أن أطلقك[٢٥] ؟ قال : نعم، قال : على أن تُبلّغ عني ما أقول صاحبك، قال : أفعل، قال : تقول له الذي أنزل بجيشك ما أنزل بغيك، هذا بلد خارج عن يدك[٢٦] غلبتُ عليه وقمتُ به وكان بي من الفضل ما آخذ به غيره فما عرضت لما كان في يدك ولا هممتُ به ولا أخفتُ لك سبيلاً ولا نلتُ أحداً من رعيتك بسوء، فتوجيهك إليّ الجيوش بأي سبب؟، اعلم أني لن أخرج عن هذا البلد ولا تصل إليه وفي هذه العصابة التي معي روح، فاكفني نفسك ولا تتعرض لما ليس لك فيه فائدة ولا تصل إلى مرادك منه إلا ببلوغ القلوب الحناجر، فلما وقف «المعتضد» على ما تضمنه حديث «أبي سعيد» قال[٢٧] : صدق، ما أخذ شيئاً كان في أيدينا، ثم أطرق مفكراً وقال : كذب عدو الله الكافر، المسلمون رعيتي حيث كانوا من بلاد الله . يتضح لنا من حديث الخليفة «المعتضد» أنه كان مدركاً لحقيقة الحال في الدولة العباسية وأن بعض ولاياتها ومن بينها بلاد البحرين قد خرجت عن سلطانه، وأن واجبه كخليفة يحتم عليه أن يظل نفوذه سائداً في جميع البلاد الإسلامية .

وقد بلغ من غضب «المعتضد» ورغبته في القضاء عليه أنه كان يذكره خلال مرضه ويقول بلهفة: «حسرة في نفسي كنت أحب أن أبلغها قبل موتي، والله لقد كنت وضعت عند نفسي أن أركب ثم أخرج نحو البحرين ثم لا ألقى أحداً أطول من سيفي إلا وضربت عنقه وإني أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة»، وعقد العزم على قتال «أبي سعيد» والقضاء على هذه الفتنة غير أن أحداثاً طارئة وقفت حائلاً بينه وبين بلوغ تلك الرغبة، وفي ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ الموافق سنة ٩٠١م وافته المنية .

إجراءات «أبي سعيد» في الحقل الداخلي[٢٨] :

بعد أن أطلق أبو سعيد «أباالعباس الغنوي» أقبل على الاستعداد لمواجهة الأحداث القادمة بإعداد السلاح وشراء الخيل ونسج الدروع وضرب السيوف والأسنة

وتدريب الرجال وتوفير المؤن، وجمع الصبيان في دور خاصة وأقام عليهم الحفظة والمعلمين وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ووسمهم بألاّ يختلطوا بغيرهم، ونصّب لهم عرفاء وأخذ يعلمهم ركوب الخيل وفنون الفروسية فنشأوا لا يعرفون غير الحرب[٢٩]، وقد صارت دعوته طبعاً لهم وقبض على كل مال في البلد كالثمار والحنطة والشعير وأقام رعاة للإبل والماشية ومعهم قوم لحفظها، وأجرى على أصحابه جرايات فلم يكن يصل إلى أحد أكثر مما يحتاج إليه في شؤون معاشه، وأقبل على استصلاح الأراضي الزراعية وشجع الحرفيين بمدهم بكل ما يحتاجونه من الأدوات والآلات، وأيقظ في أتباعه روح التنافس في الإنتاج وانكمش كل واحد منهم في العمل لكي يكون له الفضل في رتبته، وطلب من أتباعه تسليم جميع ما يمتلكون ويتكسبون، وحفظ الأموال في خزائن وأقام على إدارتها وصرفها أمناء أكفاء وفق نظام مرسوم وطرد الأعراب من المدينة وسد الطرق التي يُتعرف منها أحوال البلاد بالرجال، وجعل التداول في البيع والشراء بواسطة عملة من الخزف والرصاص، واتخذ لواءً من القماش الأبيض مكتوب عليه قوله تعالى «ونمنّ على الذين استضعفوا في الأرض»[٣٠] إلى آخر الآية الكريمة، فأرسى بهذه الإجراءات دعائم دولة علمانية ومجتمعاً اشتراكياً[٣١] فريداً لم يُعهد مثله في المجتمعات الإسلامية .

وقد أخذ في شن غارات خاطفة على نواحي البصرة في مهمات استطلاعية لإثارة الرعب في قلوب أهالي تلك البلاد[٣٢]، وتنقل من تظفر بهم من الرجال والنساء فيضمهم إلى خدمته فقويت شوكته وعظمت هيبته في صدور الناس، وقد دخل «أبوسعيد» مع بني ضبة في وقائع شديدة كان له في النهاية الظفر عليهم .

اغتيال «أبي سعيد الجنابي»[٣٣] :

وقد شاء الله أن يسعى «أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي» إلى حتفه، فاتخذ من جند «العباس بن عمرو الغنوي» غلاماً صقلبياً لخدمته الخاصة فجعله على طعامه وشرابه، ويبدو أن هذا الغلام كان عظيم الإخلاص لصاحبه الغنوي فقرر الانتقام له،

وما زال ينتظر الفرصة المواتية لفعل ذلك حتى انفرد به ذات يوم بالحمام الكائن في بيت «أبي سعيد» فعاجله بطعنة قاتلة من خنجر كان يخفيه تحت ثيابه فأرداه قتيلاً، ثم أخذ يطلب وجوه الدولة واحداً واحداً بدعوى أن «أبا سعيد» يطلبه فإذا حضر أجهز عليه، وأخيراً تنبه لما يجري داخل الحمام رجل كان يهم بدخوله فراعه منظر الدماء تنساب في البيت الأول من الحمام، فصاح بالناس فتجمعوا واقتحموا الحمام وألقوا القبض على الصقلبي وزجوا به في السجن ثم أعدموه وكان ذلك سنة ٣٠١هـ الموافق سنة ٩١٣م[٣٤]، وكان عمر«أبي سعيد» عند اغتياله نيفاً وستين عاماً أمضى نحو ثلاثين عاماً منها في العمل على نشر مبادئ القرمطة وتأسيس أقوى دولة قرمطية احتوت جميع أراضي بلاد البحرين، كما بسطت نفوذها على عُمان والأفلاج والطائف .

أولاد «أبي سعيد»:

ترك أبو سعيد من الأولاد: «أباالقاسم سعيداً»، و«أباطاهر سليمان»، و«أبامنصور أحمد»، و«أبا إسحاق إبراهيم»، و«أباالعباس محمداً»، و«أبايعقوب يوسف»، وبنتاً تدعى «زينب».

وصية «أبي سعيد»:

كان «أبوسعيد» قد جمع رؤساء دولته[٣٥] وأوصى إن حدث به موت أن يكون القيّم بأمرهم ابنه «سعيد» إلى أن يكبر «أبوطاهر» ويتولى شؤون الدولة، فلما قتل «أبو سعيد» جرت الأمور على ما أوصى به فتسلم «سعيد» مقاليد الحكم .

✱✱✱✱

الهوامش

(١) هم الذين ينتسبون إلى ميمون القداح، وقد اختلفت الآراء في بيان حقيقة ميمون هذا، فكتّاب السنة ينسبون الفاطميين إلى ميمون القداح ويرون أنه فارسي من الأهواز، في حين يرى إيفانوف أن ميمون هو «محمد بن إسماعيل» نفسه .

(٢) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٧ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٠٤ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٠٩ .

(٥) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ك ٢، ص ٣٨٨ .

(٦) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ك ٢، ص ٣٨٨ .

(٧) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٥ .

(٨) جزيرة في الخليج مما يلي فارس، اتعاظ الحنفاء، ص ١٥٩ .

(٩) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٦٠ .

(١٠) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٤٠ .

(١١) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ٤٦٠ .

(١٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ج ٦، ص ٩٢ .

(١٣) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .

(١٤) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ١٤٩ .

(١٥) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٤١ .

(١٦) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٥ .

(١٧) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٦٠ .

(١٨) ميكال يان دي خويه : القرامطة، ص ٤٧ – ٤٩ .

(١٩) ديوان ابن المقرب : ص ٥٣١ .

(٢٠) المرجع السابق : ص ٥٣١ ، والمسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .

(٢١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٩٥ .

(٢٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٧ .

(٢٣) أبوالحسن المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٧ .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٢١٨ .

(٢٥) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٨ .

(٢٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٩٥ .

(٢٧) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٩ .

(٢٨) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ١٤٨ .

(٢٩) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ١٤٨ .

(٣٠) سورة القصص : آية رقم ٥ .

(٣١) ميكال يان دي خويه : القرامطة، ص ١٣٢ .

(٣٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٦١ - ١٦٤ .

(٣٣) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٦٠ .

(٣٤) النويري : نهاية الأرب المنشور في كتاب الجامع في أخبار القرامطة، ص ٤٦٧ .

(٣٥) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٢١ .

✱✱✱✱

الفصل الثالث
الدولة الجنابية في الأحساء من الأوج إلى الزوال

أ ـ ولاية «أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي»:

وفي سنة ٣٠٥هـ الموافق سنة ٩١٧م سلم «سعيد» إلى أخيه «أبي طاهر سليمان بن بهرام الجنابي» مقاليد الحكم وقيادة الحركة القرمطية إنفاذاً لوصية أبيه ونزولاً على توجيهات «عبيدالله الفاطمي»، فتبوأ «أبوطاهر» سُدة الحكم بحماس شديد يدفعه الطيش وحب المغامرة، فما كاد يفرغ من ترتيب أمور الدولة وإحكام السيطرة على ما تحت يديه من القبائل والأقطار حتى عصفت في نفسه شهوة التوسع الإقليمي وبسط النفوذ على أكبر قدر ممكن من أملاك الدولة العباسية المجاورة، كما وجه سياسته إلى تأييد «عبيدالله المهدي» في عدائه للعباسيين، فعمل على إشغالهم في المشرق بحملاته التي وجهها إلى بلادهم لكي يوفر «للمهدي» فرصة توطيد نفوذه في المغرب، فزحف على البصرة والكوفة أكثر من مرة وعاد بالغنائم[١] .

وفي سنة ٣١٦هـ سار إلى العراق وخاض مع العباسيين معارك عدة تمكن خلالها من قتل بعض كبار قادتهم من أمثال «يوسف بن أبي الساج»[٢]، واكتسح عدة مدن وأخضع الأعراب وكاد أن يستولي على بغداد نفسها لولا دهاء «مؤنس الخادم» قائد الخليفة المقتدر، الذي أخذ في إرسال زوارق مشحونة بفاكهة مسمومة فما أكل منها جند القرامطة حتى هلك منهم عدد كبير، فانكفأ راجعاً إلى الأحساء[٣] .

وتوالت غاراته على قوافل الحجيج فأوقع بها مراراً عدة وفي سنين متعددة[٤] ، وكان في كل مرة ينزل بها أفدح الخسائر في الأرواح ويغنم جميع ما معها من المؤن والأموال والسلاح على الرغم من ضخامة الجيوش العباسية التي كانت تقوم على حمايتها، بل كثيراً ما كان أفراد هذه الجيوش وقادتها أهم الفرائس وأسمنها لغارات

«أبي طاهر»، وممن وقع في أسره من كبار القادة على سبيل المثال: «جعفر بن ورقاء الشيباني»، و«ثمال» أمير البحر، و«جني الصفواني»، و«طريف السفكري» .

ولم يكتف «أبوطاهر» بما تلحقه غارات عسكره[٥] بقوافل الحجيج والعسكر المرافق لها[٦] من مآسٍ فعقد العزم على مهاجمتهم في مكة نفسها، ففي سنة ٣١٧هـ الموافق سنة ٩٢٩م رأس الحجيج القادمين من بغداد «منصور الديلمي» فدخلوا مكة آمنين، وكان «أبو طاهر» قد سار إليها على رأس ألفين وخمسمائة من أتباعه فوصلها في الثامن من ذي الحجة[٧] فأوجس من في مكة من الحجاج وغيرهم خيفة من قدومه ومنعوه من دخولها وأخذوا الأهبة لقتاله، فلما رآهم على تلك الحال تظاهر أنه جاء لقصد الحج والعمرة[٨] وأنه لا يجوز لهم أن يمنعوه عن ذلك وهو أخوهم في الإسلام .

وانتدب القرشيون من أهل مكة القاضي «أبا الإمام» للتفاوض معه فحلف له «أبوطاهر» بالأيمان الغليظة أنه قد آمنهم على أموالهم ودمائهم وأنه لا يؤذي أحداً منهم وأنه ما جاء إلا ليحج، واستثنى من هذا الأمان قادة جند السلطان فإنه لم يؤمنهم وقال: أنا لا أعذر ولا أغر من نفسي ولو أردت ذلك لأمنت أصحاب السلطان ثم غدرت بهم، ولكن لا أؤمنهم فإنهم يشربون الخمر ويلبسون الحرير ويسمعون القيان[٩] ويعينون السلطان الذي يحجب عنه الرعية ويظلم اليتيم والأرملة، وأعطاهم ختمه وصلته فازدادوا بذلك ثقة واطمئناناً فقبل الناس منه هذه الوعود وأفسحوا له حتى دخل .

ولم يكد السكون يُخيّم على ربوع مكة حتى اندلع قتال بين القرامطة والحامية العسكرية المعنية بحماية الحجيج في أعقاب مصرع أحد عناصرهم بسبب شجار بينه وبين آخر من القرامطة، فسارع الحجيج وأهل مكة لمساعدة العسكر في قتال القرامطة وما كانت إلا ساعة حتى انهزم المكيون وهرب أميرهم وقتل منهم خلق كثير، فدخلت طائفة من القرامطة المسجد الحرام فأبادت من كان هناك، وفتح القرامطة الكعبة واقتلعوا جميع ما فيها من الذهب والفضة والمحاريب المذهبة والمنطقة الفضية المنقوشة التي كانت ضُربت عليها واقتلعوا بابي الكعبة فأخذوا ما عليهما من صفائح الذهب ثم عمدوا إلى الحجر الأسود فاقتلعوه[١٠] ونزعوا كسوة الكعبة وتقاسموها في ما بينهم .

ثم أمر «أبو طاهر» أصحابه بالنهب[١١] فجمع شيئاً عظيماً من الذهب والفضة والجوهر والطيب وحمل مقدار مائة ألف جمل من هذه البضائع وأحرق الباقي، وسبى من العلويات والهاشميات وسائر الناس نحو عشرين ألف رأس، وارتحلوا من مكة بعد أن كان مكثهم بها ثمانية أيام وعادوا إلى بلادهم[١٢]، فحفظوا الحجر الأسود في موضع بالقطيف يدعى الجعبة[١٣] وظل في حوزتهم اثنين وعشرين عاماً إلا أربعة أيام حتى قام برده «سنبر بن حسن بن سنبر» في سنة ٣٣٩هـ الموافق سنة ٩٥٠م في عهد «أحمد بن سعيد الجنابي»، وقد قام بوضعه في مكانه بالمسجد «سنبر» سالف الذكر وهو يقول : «رددناه بأمر من أخذناه بمشيئته» وذلك في يوم الثلاثاء يوم النحر من سنة ٣٣٩هـ الموافق سنة ٩٥٠م .

وقد ظلت هذه الحادثة على مر الأيام رمزاً لأسوأ ما أقدم عليه الإنسان من الممارسات المشينة والجرائم الشنعاء، ولكن كيف حدثت هذه المأساة مع زعم «أبي طاهر» أن مجيئه كان لمحض الحج والعمرة وتعهده بعدم الاعتداء على الحجيج أو النيل منهم .

يرى بعض الرواة أن العدوان على الحجيج كان أمراً مبيتاً بسابق الإصرار والترصد، وأن مزاعم «أبي طاهر» تلك كانت غطاءً أخفى به نواياه الحقيقية للوصول إلى مراده بسهولة ويسر[١٤]، بل ربما قيل إن ما حدث جاء نتيجة لذلك الاختلاف العرضي وإن عسكر السلطان قد افتعلوه أصلاً بقصد إشراك الحجاج معهم في التصدي للقرامطة كي لا يتحملوا تبعة تلك المجابهة بمفردهم لعلمهم أن القرامطة مصممون على حربهم كما عبّر عن ذلك «أبوطاهر» نفسه، وقد اتخذوا من مصرع ذلك الغلام وسيلة لإلهاب مشاعر رجال الأمن وبعض الحجيج فالتحموا مع القرامطة في قتال مرير انتهى بتلك المأساة المروعة .

ومهما تكن الجهة المستفيدة من هذا العدوان أصلاً فإن الذي لا ريب فيه أن القرامطة حضرت إلى مكة وأقدمت على ما أقدمت عليه بنوايا عدوانية مبيتة، ولعلها أرادت بذلك أن تستغل موسم الحج باعتباره أهم الميادين الإعلامية وأكثرها اتساعاً لاستعراض قوتها باعتبارها القوة الوحيدة القادرة على التحكم في مصائر الناس

ومقدراتهم، لتحقيق المزيد من الهيبة لهم ونشر الخوف منهم في جميع الأرجاء، وكذلك بغية إهدار كرامة الخلافة العباسية وفضح ضعفها وعجزها عن حماية المقدسات ناهيك عن سائر الأراضي والبلدان، وذلك على أعلى المستويات في جميع الأوساط، هذا بالإضافة إلى رغبة القرامطة في زعزعة الإيمان عند الناس وإزالة هيبة المقدسات من نفوسهم وإضعاف شعورهم الديني[١٥] ليصبحوا بذلك أكثر استعداداً لقبول الأفكار والمبادئ القرمطية. وقد غاب عن بالهم أن أعمالهم تلك قد أحدثت في ضمير العالم الإسلامي جرحاً لم يندمل وجللت بالعار والشنار سمعة القرامطة على مر الليالي والأيام، وهذا ما تنبه له شريكهم في العقيدة والمبدأ «محمد بن عبيدالله المهدي» حين بادر إلى استنكار هذا العمل وإعلان البراءة منه ودعوة القرامطة إلى تفادي ما يمكن تفاديه من آثاره كإعادة الحجر الأسود ورد مدخرات البيت إلى أصحابها في رسالة شديدة اللهجة وجهها إلى «أبي طاهر»، فرد عليه «أبو طاهر» برسالة تَلطّفه فيها وأحاطه علماً برد بعض الأموال إلى أهل مكة واعتذر عن رد أموال الحجاج لتفرقهم في البلاد[١٦]، ولم يرد الحجر الأسود مما يشير إلى عدم وجود سلطة فعلية للعبيديين على قرامطة البحرين بالرغم من الروابط العقدية التي بينهم .

فتنة الأصبهاني وأثرها في سير الحياة القرمطية :

بينما كان «أبو طاهر» يواصل حملاته العسكرية في الأراضي الشامية، أجبرته على الإسراع في العودة إلى بلاده أزمة خطرة نشبت في أوساط القيادة القرمطية هناك وأوشكت على الإطاحة «بأبي طاهر» وتصفية وجود أسرته، وذلك أن رجلاً من كبار بني سنبر المقربين من «أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي» والمطّلعين على أدق أسراره اختلف مع «أبي حفص الشريك» زوج أخت «أبي طاهر»، ولما استحكم العداء بينهما توجه ابن سنبر إلى رجل أعجمي يدعى «زكريا الطمامي»[١٧] كما يعرف «بزكيرة الأصبهاني»، فاتفق معه على أن يمكنه من السيطرة على القرامطة ويملكه أمرهم في مقابل قيامه بقتل «أبي حفص» عدو «ابن سنبر»، وتعاهدا على ذلك، فأطلعه «ابن سنبر» على أسرار «أبي سعيد»[١٨] وعلامات الرجل الذي كان يدعو إليه ويزعم أنه المهدي،

فحضر «الأصبهاني» إلى البحرين وعرّف أبا طاهر وإخوته بأنه المهدي الذي كان أبوه يبشر بظهوره، وأقام لهم الدليل على صدق مزاعمه بذكر ما توافر له من المعلومات عن ذلك، فانخدعوا به وصدقوه ودانوا له بالسمع والطاعة .

وجمع «أبو طاهر» الناس وقال : «يا معشر الناس إنا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم وهذا إلهنا وإلهكم وربنا وربكم وأشار إلى «زكيرة الأصبهاني» فإن عاقب فبحق وإن عفا فبفضل»، وعرّج على من كان عنده في البحرين من سواد الكوفة وأهل الكوفة وقال : «يا معشر الدعاة والخاصة اذكروا ما عندكم فذكروا جميع ما اتفق عليه من الأمور «عبدالله بن ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان» و«محمد بن سعيد بن جهار» ومنها تطبيق مبادئ القرامطة تحت ستار التشيّع والدعوة إلى «المهدي»، فإذا تحقق لهم النجاح في ذلك وصاروا في ملك وقوة أظهروا تكذيب الأنبياء وتعطيل الشرائع وقتلوا المسلمين، فأمرهم «زكيرة» بشتم الأنبياء جهرة في الأسواق كما أمر بإحراق الكتب السماوية وبراءة الذمة ممن احتفظ عنده بشيء منها، وأمر بالمنكرات وأباح المحظورات بما في ذلك الزواج من المحارم، وقال لهم : «تأهبوا فإني سائر إلى العراق لاستئصال دين محمد وقتل أتباعه فقد انقضت دولته»، كما بذل كل ما في وسعه للتحكم في مصائر ومقدرات الدولة وقتل من وجوهها وزعمائها في مدة ثمانين يوماً سبعمائة رجل في مقدمتهم أعيان بني سليمان وبني زرقان، وأمرهم بأن يعرضوا عليه نساءهم من بيت «أبي سعيد» وغيره واختار منهن من أراد، وكان من بين من اختار «زينب بنت الحسن بن بهرام الجنابي» نفسه وكان قد قتل زوجها، وبعد مدة أخبر أحد المقربين إلى بيت الجنابي ويدعى «أبو دلف» أمَّ أبي طاهر بأن «زكيرة» عقد العزم على قتل جميع أولادها، فبعثت إلى «أبي طاهر» وكان في الشام لتخبره بما يبيت «الأصبهاني» له ولإخوته، فبادر بالعودة إلى البحرين لإنقاذ الموقف والقضاء على «الأصبهاني»، فجمع «أبوطاهر» إخوته وقال لهم: لقد أخطأنا في هذا الرجل وسأكشف حاله، فاستدعوه وقالوا له : إن لنا مريضاً فانظر له ليبرأ وكانوا قد أضجعوا والدتهم وغطوها برداء فلما نظر إليها قال : إن هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه، قالوا : كذبت إنها والدتنا فقتلوه على الفور، فلما انتشر خبر قتله في الناس توافدوا على القصر لمعرفة

ما جرى، فأمر «ابن سنبر» بإغلاق باب القصر وأشرف على الناس وسألهم عن سبب تجمعهم فقالوا : قد بلغنا أنكم قتلتم الإله، قال: قد فعلنا ذلك، فلما سألوه عن السبب امتنع عن إجابتهم وقال : يا قوم لا تفضحونا وأنفسكم ولا تشمتوا بنا المسلمين وبكم وارجعوا عن جميع ما قاله لكم «أبوطاهر» إلى ما كنتم عليه وكنا من قبل ذلك، ما نحن أصحاب المهدي والدعاة إلى المهدي، والمؤمنون الشيعة فإنا كنا نتحدث بأن ستكون للمؤمنين ذلة وهي هذه، فالله الله في أنفسنا وأنفسكم فما أدخلناكم في شيء إلا بعد أن دخلنا فيه، فقالوا: نريد أن نراه مقتولاً لأنهم خافوا أن يكون في الأمر خدعة، ففتحوا الباب وأدخلوهم فرأوا «زكيرة» مقتولاً وجاءت «زينب بنت أبي سعيد» امرأة «ابن زرقان» فشقت جوفه واستخرجت كبده فأكلتها، وكان قد أمر «أبا طاهر» بقتل ابنها من زوجها الأول بيده ففعل، فقال «ابن سنبر» لـ «أبي طاهر»: فرق المال في الرؤساء وأرضهم فإن هذه سقطة عظيمة سقطناها، فأرسل «أبو طاهر» للرؤساء بالأموال واسترضاهم بها سعياً وراء التخفيف من الآثار السيئة التي تركتها هذه القضية في نفوس القرامطة ومن يدور في فلكهم .

وفي تصوري أن قصة «زكيرة الأصبهاني» هذه تمثل أول مسمار يدق في نعش الحركة القرمطية في البحرين، فقد كشفت لكثير من أتباعها حقيقة الدعوة وأساليب الخداع والتضليل التي يتم انتهاجها في سبيل نشرها وجذب الناس إليها، كما نالت كثيراً من المكانة السامية «لأبي طاهر» في نفوس أتباعه وأطفأت بريق الصورة الخلابة التي رسموها له في مخيلتهم، فبعد أن كانوا يعتبرونه حجة «المهدي» أو نائبه ويسبغون عليه أجل عبارات التعظيم والتبجيل قبل هذه الحادثة، صاروا فيما بعد يعدونه المسؤول الأول عن فضح الدعوة وتقويض أركانها واستهانت العرب به بعد ذلك التعظيم[١٩]، فصاروا بعد قصة «زكيرة» لا يهتمون بأوامره وصاروا يشربون ويسمعون القيان، ولكن من هو هذا الرجل الذي استطاع أن يتسلل إلى سدة السيادة المطلقة على مقدرات هؤلاء القرامطة بالبحرين وتصرف في شؤونهم بالصورة التي أفرزت هذه النتائج الخطرة على سير الحياة في دولتهم؟.

في تصوري أن هذا الرجل الأعجمي لم يكن شخصاً عادياً أو إنساناً يطمح إلى ملك أو سيادة، لأن خطورة التدابير التي اتخذها مع هؤلاء والتعاليم المشينة التي نشرها بينهم وقسوة الإجراءات التي مارسها مع بعضهم كقتل المئات من رجالات الدولة وأركانها، وحمله «أبا طاهر» على أن يقتل ابن أخته بيده أمور تنم عن حقد دفين ورغبة في الانتقام لشيء معين، الأمر الذي يحملني على الاعتقاد أن هذا الرجل الأصبهاني لم يكن إلا ابناً للداعية القرمطي الذي أوفده «عبدان» إلى المنطقة في بداية الدعوة وقام «أبوسعيد» بقتله صبراً للانفراد بقيادة الحركة وتولي الحكم بعد نجاحها .

وحسبنا شاهداً على صدق ما ذهبنا إليه إلى جانب القرائن السالفة الذكر أن بعض المصادر قد صرحت بأن اسم هذا الأعجمي هو«ابن أبي زكريا الطمامي» السالف الذكر.

أما كيف اعتبروه فيهم إلهاً فإن من عقائدهم الفاسدة أن الرجل منهم ربما تدرج في سلم الارتقاء حتى ينال رتبة الألوهية، بحيث يكون أولاً داعية ثم يرتقي إلى أن يكون حُجة ثم إلى الإمامة ثم يلحق برتبة الرُسل ثم يتحد بالرب فيصير رباً .

«أبوطاهر» يواصل نشاطه العسكري:

رغبة من «أبي طاهر» في استعادة ثقة الناس به ورفع معنوياتهم استأنف نشاطه العسكري، فحاول غزو مدن الساحل الشرقي كما عاود اعتراض الحجيج فتصدى لهم في «الجابرية»[٢٠] في ٢٢ من شوال سنة ٣٢٢هـ فظفر بعدة قوافل ونهب ما معها من النفائس والأموال .

وحين لاحظ أحد القرامطة ما تتركه غارات «أبي طاهر» من الآثار السيئة في سير الحركة القرمطية، وأن المستفيد الأول من تلك الغارات الأعراب الذين قلت هيبتهم للقرامطة فصاروا يفرون بكل ما تصل إليه أيديهم من أموال الحجاج وأمتعتهم تاركين لسادتهم المذلة والعار، باعتبارهم المانعين من الحج مع تعطش الناس إليه والرغبة في أدائه، اقترح على «أبي طاهر» أن يطلب من الحجيج حين يظفر بهم دفع دينار عن كل

واحد منهم ثم يأذن له بالمسير إلى الحج ويؤمن سبيلهم، لأن ذلك سيلاقي هوىً في نفوسهم وسيزيد من إقبال الناس على الحج من كل بلد، ولن يبقى ملك إلا كاتبه وهاداه واحتاج إليه في حفظ أهل بلده وخاصته، فجبى في كل سنة ما لا يصير إلى السلطان مثله من الخراج واستولى على الأرض وانقاد له الناس[٢١]، فاستصوب «أبو طاهر» هذا الرأي وقرر العمل به من تلك السنة فبادر من وقته ونادى في الناس بالأمان، وكان لهذا النداء صدى طيب في نفس الخليفة وسائر السلاطين، واتفقوا معه على أن يقوم بالإمساك عن مهاجمة بلدانهم كما يتولى خفارة الحجيج[٢٢] مقابل مقدار معلوم من المال، ففُرضت له الرسوم من الخليفة ببغداد ومن بني بضجع أمراء دمشق ومن «كافور الإخشيدي» فبلغ ما يصل إليه من كل واحد من هؤلاء ثلاثمائة ألف دينار في كل عام، كما قبل الخليفة العباسي بوجود دعاة قرامطة في بغداد من أمثال « عيسى بن موسى، وآل الغُمر»، وكان لهم من النفوذ في الخلافة ما مكنهم من التدخل حتى في اختيار من يشغل المناصب العليا في الدولة من الرجال .

وفاة «أبي طاهر» وكيف صارت الأحوال بعده في البحرين :

في رمضان سنة ٣٣٣هـ وقيل سنة ٣٣٢هـ الموافق ٩٤٤ م توفي «أبوطاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي» وله من العمر ثمان وثلاثون سنة أمضى منها في الحكم ثمانياً وعشرين سنة زاخرة بالأحداث الجسام والحروب المرعبة، وقد أصبحت الدولة في عهده على جانب كبير من القوة واتساع النفوذ، وكان أولاد «أبي طاهر» حين وافاه الأجل صغاراً غير قادرين على النهوض بإدارة أعباء الدولة فاضطلع للقيام بهذه المهمة أخواه «أبو العباس محمد» و«أبو يعقوب يوسف»، يساعدهما سبعة وزراء يرأسهم «أبومحمد سنبر بن الحسن»، وبعد حين قام أخوهم «سعيد» بالثورة على أخويه والاستيلاء على مقاليد الحكم ولكنه لم ينجح في إحكام السيطرة على إدارة شؤون البلاد، فهب أخوهم «أحمد» للإطاحة به بالتعاون مع كبار القرامطة والاستعانة بتوجيه العُبيديين الفاطميين، وجرى الاتفاق على أن يظل «أحمد بن الحسن» يمارس مهام الحكم حتى يكبر «سابور بن سليمان» فيسلمه له باعتباره ولي عهد أبيه.

ولم يكن جميع كبار القرامطة على قناعة بسلامة هذا الإجراء فانقسموا إلى فريقين، فريق فيه أبناء «أبي طاهر سليمان بن الحسن» وعلى رأسهم «سابور» وعمه «أحمد» ومعهم بعض كبار القرامطة ويسمون العقدانية ببقائهم على عقيدة أسلافهم في موالاة «العبيديين»، وفريق آخر في مقدمتهم «سعيد بن الحسن بن بهرام الجنابي» ورأي هؤلاء ضرورة الالتزام بالاستقلال التام وممارسة الحكم بمفاهيم محلية خالصة لا سلطان عليها لأي قوة خارجية، وكان هذا الخلاف أول صدع في بناء هذه الدولة حيث تلته سلسلة من النزاعات التي كادت تعصف بوجودها وتقضي عليها .

فقد أبى «سعيد» الإذعان لهذه الترتيبات وأعد جيشاً من مؤيديه سار به إلى عُمان فاستولى عليها، ولكن «أحمد» سيّر إليه جيشاً بقيادة ابنه «الحسن» الملقب «بالأعصم» وهناك دارت بين الجيشين معركة حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة «سعيد»، فعادت المناطق التي استولى عليها لنفوذ الحكومة المركزية في البحرين .

كما سار «الأعصم» بتكليف من أبيه إلى الشام على رأس جيش لتأديب «ابن طغج»[٢٣] الذي أظهر مساندة واضحة لسعيد في مواقفه السياسية ونشاطه العسكري ضد الدولة، فالتقى «الأعصم» بابن طغج في قتال ضارٍ كان في نهايته الظفر «للأعصم» فأرغم «ابن طغج» على الالتزام بدفع إتاوة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، ولكن العلاقة بينهما اتخذت فيما بعد طابعاً ودياً فتزوج الحسن من ابنة «ابن طغج»، وكان «الأعصم» قد استولى على الرملة وعيّن لإدارة شؤونها «وشاح السلمي» ومن ثم أقبل عائداً إلى البحرين وذلك في ذي القعدة سنة ٣٥٨هـ الموافق سنة ٩٦٨م، وخلال هذه الأحداث كان «سابور بن سليمان» قد شبّ عن الطوق فعبر عن رغبته في تسلّم مقاليد السلطة ولكنه لم يجد من عمه «أحمد» أذناً صاغية، ورأى في النفوذ المتزايد للأعصم مؤشراً واضحاً على أنه لن يُمكّن منها أبداً فقرر انتزاع الحكم من عمه بالقوة، فأعلن الثورة سنة ٣٥٨هـ وقبض على عمه «أحمد» فأودعه السجن، ولكن «أحمد» بعد حين استطاع الفرار من سجنه بمساعدة أحد إخوته فاعتقل «سابور» ورمى به في السجن حتى مات[٢٤] .

أما إخوة «سابور» وكبار مؤيديه فقد أُجبروا على الإقامة في جزيرة أوال وكان عددهم ثلاثمائة رجل، وبعد ذلك تمكن «أحمد» من فرض سلطته على كامل أراضي الدولة ودخلت في طاعته جميع القبائل، وفي سنة ٣٥٩هـ مات «أحمد بن الحسن بن بهرام الجنابي» وكان قد عهد بالحكم بعده لابنه «الحسن الأعصم».

ب. الحركة القرمطية في ظل ولاية «الأعصم»:

بلغت الدولة الجنابية في البحرين في عهد «الأعصم» هذا أوج قوتها في الحقلين الداخلي والخارجي، فقد استكملت البلاد نموها العمراني والاقتصادي كما ازدادت الأعمال العسكرية قوة واتساعاً، ولم تعد العراق وطرق الحجيج مسرح تلك العمليات العسكرية كما كان الحال في عهد «أبي طاهر» بل صارت مصر والشام مسرح ذلك النشاط، ففي سنة ٣٥٨هـ الموافق ٩٦٩ م استولى على مصر «جوهر الصقلي» لحساب سيده «المعز لدين الله العبيدي»، فأنفذ «جعفر بن فلاح الكتامي» على رأس جيش إلى الشام واحتل دمشق وفلسطين وكثيراً من الأراضي السورية واعتقل «ابن طغج»، فاستطال «جوهر» بتلك المكاسب على الناس واستبد به الغرور وقرر قطع الرسوم المالية المقررة لقرامطة البحرين من مصر والشام، وأظهر الاستخفاف بهم وقال عنهم حين ذكروا عنده وذكرت الجزية التي لهم على سيده «من هؤلاء الكلاب؟» الآن أُنفذ «كتامة» إلى الأحساء فيشدون براذينهم على أبوابهم ويوثقونهم[٢٥]، وفي ذات الوقت وصل إلى الأحساء كل من «ظالم بن موغوب العقيلي» و«محمد بن عصودة» قادمين من دمشق بعد سقوطها في يد المغاربة، وحثا «الأعصم» على تحرير الشام من أيديهم .

ووافق على ذلك وتأهب للمسير إلى هناك وعمل على تحسين علاقته بالعباسيين فسمح بأن تكون الخطبة في مكة للخليفة «المطيع لله العباسي» وللقرامطة الهجريين على السواء[٢٦] وذلك في سنة ٣٥٩هـ ٩٧٠ م، كما أرسل «أبا طريف عُدي بن محمد بن الغُمر» إلى الوزير العباسي «أبي الفرج محمد بن العباس» و«عزالدولة باختيار» يطلب منهما إسعافه بالمال والرجال، وكان البلاط العباسي في ذعر من تنامي قوة العبيديين واستيلائهم على الشام وتهديدهم حاضرة الخلافة، فوجد في طلب «الأعصم» فرصة

سانحة لإيقاف هذا الخطر أو دحره، وبدافع من التقاء المصالح أبدى الخليفة استعداده لمساعدة «الأعصم» فأمر له بمال وسلاح وأعطاه حوالة بمبلغ أربعمائة ألف درهم على أمير الرحبة «أبي تغلب بن ناصر بن حمدان»، فرحل «أبوعلي الحسن الأعصم» من الكوفة وقد أظهر الولاء للخلافة العباسية فاتخذوا أعلاماً سوداً[٢٧] تحمل شعارهم وعليها مكتوب اسم الخليفة «المطيع» وتحته مكتوب السادة الراجعون إلى الحق[٢٨]، وحين وصل «الرحبة» رحب به أميرها وأعطاه المال المُحال به عليه[٢٩]، وأبدى استعداده للقتال معه متى شاء ذلك، كما حث أتباعه على المسير مع «الأعصم» والقتال إلى جانبه، فهب للانخراط في جيش «الأعصم» جماعة من عسكر «ابن تغلب» فيهم كثير من الإخشيدية الذين جاءوا إلى «أبي تغلب» بعد زوال دولتهم على يد العبيديين، وتعود مؤازرة «ابن تغلب» للأعصم إلى مراسلات جرت بينه وبين «جعفر بن فلاح» أغلظ «ابن فلاح» فيها على «ابن تغلب» وتهدده بالمسير إليه .

سُرّ «الأعصم» بهذه التطورات فسار عن الرحبة حتى دنا من أرض دمشق ووصل إلى ضياع المرج، فظفرت خيله بجماعة من المغاربة يقودهم رجل يُقال له «علي بن مولاه» فأفنوهم جميعاً فغشيت الذلة والانكسار المغاربة، وكتب «الأعصم» إلى «جعفر بن فلاح» كتاباً يخيره بين الاستسلام أو الحرب، بيد أن «جعفر بن فلاح» لم يهتم بكتاب «الأعصم» وأظهر الاستخفاف به وبجموعه، فتقدم «ظالم بن موهوب العقيلي» على رأس جماعة من عشيرته وبني كلب فالتحم بالمغاربة في صحراء «المزة» وأقبل «شبل بن معروف العقيلي» مُعيناً «لظالم»، ولم يزل القتال بينهم إلى أن أقبل «الحسن بن أحمد الأعصم» فاشتد ساعد العقيليين واستعر أوار القتال فدارت الدائرة على المغاربة وكثر فيهم القتل، وعثر على «ابن فلاح» صريعاً بين القتلى دون أن يُعرف قاتله في الموضع المعروف «بالدكة»، واشتغلت العرب بنهب العسكر وذلك في يوم الخميس سابع ذي القعدة سنة ٣٦٠هـ .

ودخل «الأعصم» دمشق وأمّن أهلها وأحسن السيرة فيهم ولعن «المعز» على منبر دمشق وخطب للمطيع، ثم سار «الأعصم» من دمشق قاصداً «الرملة» وكان «جوهر

الصقلي» قد أنفذ من مصر رجلاً من المغاربة يدعى «سعادة بن حيان» على رأس أحد عشر ألف مقاتل، فلما بلغ «ابن حيان» خبر الهزيمة وقتل «جعفر بن فلاح» تحيّر وتقطّعت به الأسباب ودخل في يافا، ثم قصده «الحسن بن الأعصم» هناك فنزل بظاهر المدينة واجتمعت عليه عرب الشام وطوّق يافا بالحصار حتى أوشك ما بها من الأقوات على النفاد، فأبقى «الأعصم» على حصارها «أبا المنجا» و«ظالماً العقيلي» أما هو فقد ولّى وجهه شطر مصر .

مسير «الأعصم» إلى مصر بعد استيلائه على الشام :

لما بلغت «جوهر الصقلي» أخبار استيلاء القرامطة على دمشق وتضييق الحصار على «سعادة بن حيان» في يافا أيقن أن القرامطة زاحفون على مصر، فراجت فيها الإشاعات بذلك، فعمد إلى اتخاذ الإجراءات الاحتياطية والاستعداد للمقاومة فحصّن مدينة «القاهرة» بسور منيع وخنادق عميقة[٣٠] وفرّق السلاح على أتباعه .

وفي ذي الحجة سنة ٣٦٠هـ الموافق سنة ٩٧٠م استولت طلائع جيوش «الأعصم» على مدينة السويس[٣١]، وفي محرم سنة ٣٦١هـ الموافق ٩٧٢ م استولى القرامطة على مدينة الفرما، وانتشرت عساكر القرامطة في الأراضي المصرية وتعقبوا المنهزمين منهم إلى عين شمس، فتأهب «جوهر» لمقاومتهم وأخذ الحيطة منهم فأغلق أبواب الطابية وشدد الرقابة على المدينة[٣٢] .

وفي صفر سنة ٣٦١هـ الموافق ٩٧٢ م نشب القتال بين القرامطة والعبيديين على أبواب القاهرة وجرت معارك بين الطرفين انتهت بإخفاق «الأعصم» في الاستيلاء على القاهرة، وفي ذات الوقت كان «المعز» يعمل في الخفاء لإضعاف القرامطة بإشعال الفتنة والخلاف بينهم، فقد كتب إلى أبناء «أبي طاهر» المنفيين في جزيرة أوال كتاباً يتضمن تنحية «الأعصم» عن شؤون الدعوة وإسنادها إليهم، فساروا من أوال إلى الأحساء ونهبوها، فلما بلغ «الأعصم» أخبار تلك الحركة عاد إلى الأحساء وأجبر المتمردين على العودة إلى أوال .

وفي سنة ٣٦٢هـ عاد «الأعصم» من الأحساء إلى الشام فنزل الرملة وتأهب للمسير إلى مصر[٣٣]، فسيّر إليها طلائع المقاتلين بالسفن وأخذ في حشد المقاتلين من العرب وغيرهم، وكان «جوهر» يكتب إلى «المعز لدين الله» بالقيروان بما جرى على عسكره من القتل والحصار، وأن «الحسن بن أحمد» يقاتلهم على خندق عسكره، وقد أشرف على أخذ مصر فقلق «المعز» من تلك الأخبار قلقاً شديداً، وجمع العساكر من كل مكان وسار إلى مصر، ودخلها في يوم الثلاثاء السادس من رمضان سنة ٣٦٢هـ ٩٧٣م، وكان شديد الخوف من «الحسن بن أحمد الأعصم»[٣٤] فلما نزل مصر عزم على أن يكتب إليه كتاباً يعرّفه فيه أن المذهب واحد وأنهم منهم استمدوا وأنهم سادتهم في هذا الأمر[٣٥]، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة، ويعظه ويبالغ في تهديده في كلام مسهب محشو بأنواع الكفر والضلالات، ولما قرأه «الأعصم» سخر منه وأجابه بكتاب موجز نصه: «وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون على إثره والسلام».

ولعل «المعز» أراد بذلك الكتاب أن يعرف ما في نفس «الأعصم» وعما إذا كان قد هابه بعد أن وصل إلى مصر أم لا، وفي ربيع الآخر سنة ٣٦٣هـ الموافق ٩٧٤م كثر انتشار القرامطة في أعمال مصر، واشتعلت أرض مصر بحروب القرامطة، وأقبل «الأعصم» على رأس جيش كبير فيه كثير من عشائر البادية «كطي» وغيرها، والتحم مع جيوش «المعز» في معارك كثيرة[٣٦] انتهت بهزيمة «الأعصم» وانسحابه من مصر[٣٧]. وتشير إحدى الروايات أن انسحاب «الأعصم» من هناك جاء نتيجة لتسوية سلمية استرضى فيها «المعز» «الأعصم» بمبلغ من المال بعد أن جرت بين الطرفين مناوشات أجبرت «المعز» على التراجع إلى مدينة القاهرة والاعتصام بها .

ومهما تكن نتيجة تلك الصراعات فقد انتهج «المعز» سياسة جديدة تجاه أعداء اليوم وأصدقاء الأمس فسعى إلى إزالة أسباب الخلاف معهم، وفي هذا الإطار أطلق سراح من كان لديه من أسراهم وأكرمهم وكان من أبرزهم «أبوالمنجا» فقد استدعاه «المعز» بعد إطلاق سراحه في الخامس من محرم سنة ٣٦٤هـ الموافق ٩٧٥م ، وأنعم

عليه بالهبات السخية وكلفه أن يبذل كل ما في وسعه للعمل على رأب الصدع الذي منيت به علاقة العبيديين برؤساء البحرين، كما ضمن لهم إتاوة سنوية تحمل إليهم، وصادف ذلك هوىً في نفس «الأعصم» لأن أزمة حادة قد نشبت بينه وبين الخلافة العباسية، سببها في ما أرى أن «عضد الدولة بن خسرو بن ركن الدولة علي بن بابويه» حين علم بفشل مساعي «الأعصم» في الاستيلاء على مصر ورجوعه إلى الشام[٣٨] خائباً رغب في الاستيلاء على الأحساء، وأرسل لاحتلالها جيشاً جراراً، وكان واليها من قبل «الأعصم» عمه «أبا يعقوب يوسف» فتصدى للمهاجمين ولكنه لاذ بالفرار من الأحساء لما وجد نفسه عاجزاً عن صد هجوم العباسيين عليهم، حينذاك بادر «الأعصم» للعودة إلى بلاده لمعالجة الوضع فجمع فلول المنهزمين وعمل بالتنسيق مع عمه «أبي يعقوب» على قتال العباسيين وإجلائهم عن البلاد، فتم له ما أراد في إثر معركة طاحنة دارت رحاها بين الطرفين .

وقد أحس «الأعصم» بعد انتصاره في تلك المعركة بدماء الثقة تتدفق في شرايينه من جديد، فأرسل إلى رجال العشائر يدعوهم للقدوم عليه والتكتل حوله، فبادروا إلى ذلك، وكأني بالعباسيين حين علموا بإخفاق «الأعصم» في تقليم أظافر العبيديين أيقنوا أن الشام ستقع لا محالة في قبضتهم وأن العباسيين سيجدون أنفسهم حينذاك بين العبيديين في الشمال والقرامطة في الجنوب، وأنه متى تحسنت العلاقة بين هاتين القوتين ستصبح الخلافة العباسية بلا شك لقمة سائغة لهم .

لذا رأى «عضد الدولة» السالف الذكر أن يمنع هذا الخطر الداهم بالقضاء على إحدى هاتين القوتين، فاستغل فرصة ضعف القرامطة في هذه الفترة فسعى للإطاحة بهم والقضاء عليهم في عقر دارهم، ولكن مساعيه لم تكلل بالنجاح فذهبت أدراج الرياح .

عودة «الأعصم» إلى الشام من جديد ووفاته هناك :

كان أهل دمشق قد ولوا عليهم رجلاً من أصل تركي يدعا «الباكتين الشرابي» وقد أحسن فيهم السيرة فأحبوه، وكان في بداية أمره يكاتب «المعز» ويهادنه، ولما مات

«المعز» سنة ٣٦٥هـ كاتبه «العزيز» ودعاه للقدوم عليه والانضواء تحت نفوذه، ولكن «الباكتين» رفض ذلك وعبر عن تمسكه باستقلال بلاده فغضب «العزيز» من جوابه، وسيّر جيشاً لقتاله بقيادة «جوهر الصقلي»، وبلغ «الباكتين» ذلك فجمع وجوه الدماشقة وتشاور معهم في ما ينبغي اتخاذه إزاء تهديد الحاكم «العبيدي» لهم، فأشاروا عليه بضرورة الدفاع عن البلاد واستعدادهم للتضحية في سبيل ذلك انطلاقاً من اختلافهم مع العبيديين في العقيدة والمذهب، ونتيجة لما نالوه على أيدي عمالهم من سوء المعاملة أثناء خضوع الشام لسيطرتهم، وحين اقترب «جوهر» من دمشق خرج إليه «الباكتين» في أصحابه ومن معه من العرب ودارت بينهم مناوشات على مدى شهرين، ثم أشار أهل دمشق على «الباكتين» بمكاتبة «الحسن بن أحمد الأعصم» ففعل، وقد أجابه «الأعصم» إلى ما طلب، فأعد جيشاً سيّره إلى الشام لنجدة أهلها فيه من أبناء عمه «إسحاق، وكسرى، وجعفر» وذلك في سنة ٣٦٥هـ الموافق ٩٧٦م، فنزلوا ظاهر دمشق ولقي «الباكتين» القرامطة فأنعم عليهم بالأموال وأكرمهم وأمّلهم، فمكثوا بدمشق أياماً ثم ساروا قاصدين الرملة ففر منها عامل العبيديين «أبومحمود بن إبراهيم بن جعفر» واعتصم بيافا ونشب القتال ضارياً بينه وبين القرامطة حتى كلّ الفريقان .

وقد اتخذ القرامطة من يافا مقراً لإقامتهم وشرعوا في جباية الأموال، وبعد مدة غادر «إسحاق وكسرى» القرمطيان الشام متوجهين إلى بلادهم وانضم «جعفر» بمن معه إلى جانب «الباكتين» في طبرية، وقد نزل «جوهر» بالرملة بعد أن فارق القرامطة، وسار في إثر «الباكتين» و«جعفر» إلى دمشق، ونزل بظاهر الشمّاسية ودارت بين الفريقين مناوشات واستمروا على هذا الحال إلى جمادى الأولى سنة ٣٦٦هـ الموافق ٩٧٧م، وفي هذه الأثناء وردت البشارة على «جعفر» بأن ابن عمه «الحسن بن أحمد الأعصم» في الطريق إلى الشام، ولما صح الخبر بذلك حاول «جوهر» الاعتصام بمكان آمن فدخل زيتون الرملة وتحصن بها، وسار «الباكتين» من دمشق في إثر «الحسن» فأدركه في الرملة، وهناك أدركت «الحسن بن أحمد» الوفاة فمات في يوم الأربعاء ٢٣ من رجب سنة ٣٦٦هـ الموافق سنة ٩٧٧م .